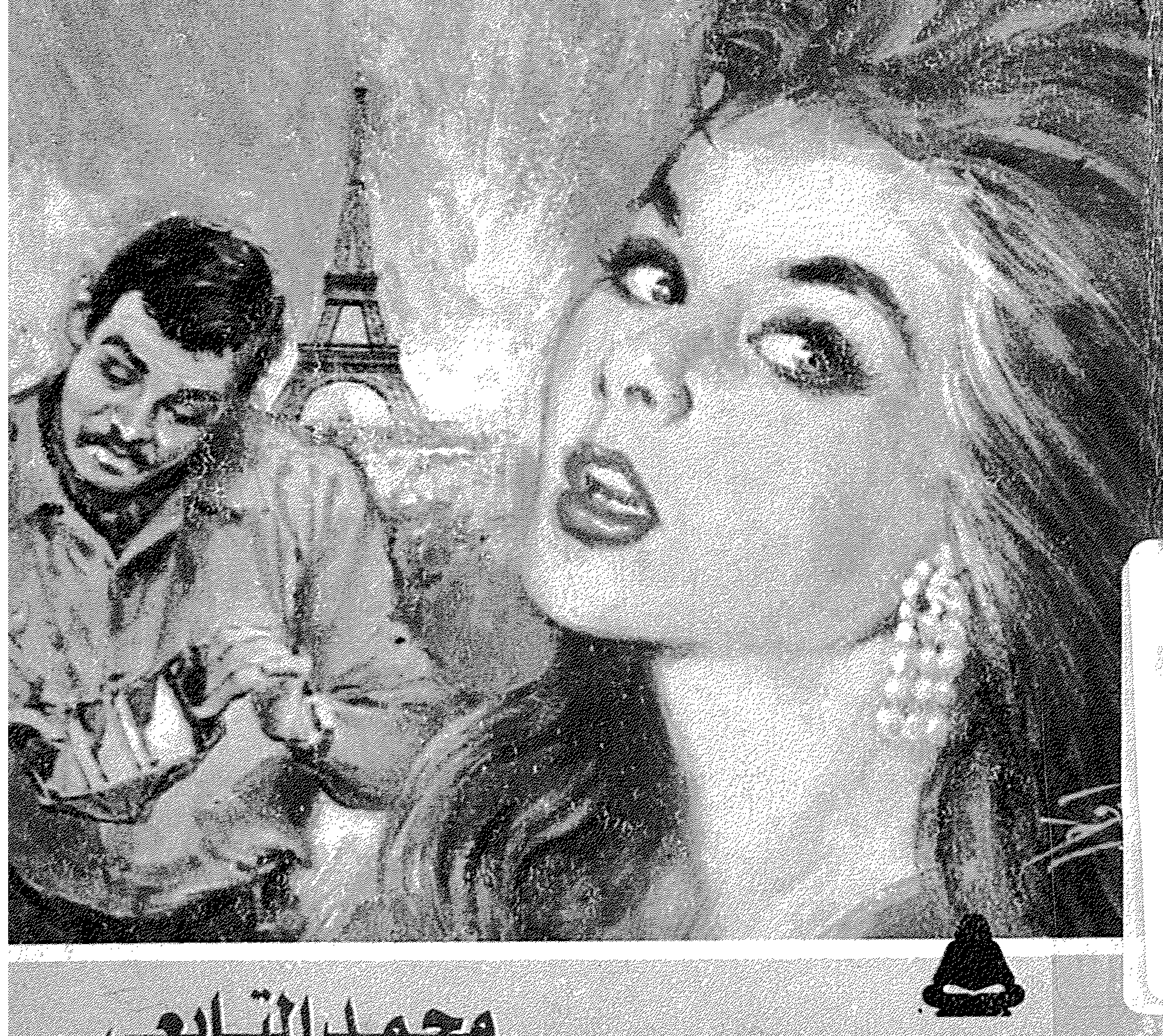
مكتبة الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع
الأعمال الإبداعية

بعض من عرفت



محمد التابعي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

بعض من عرفت

بعض من عرفت

محمد التابعى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

بعض من عرفت

تأليف: محمد التابعى

الغلاف

الفنان: جمال قطب

الغلاف

الإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

بعض من عرفت ...

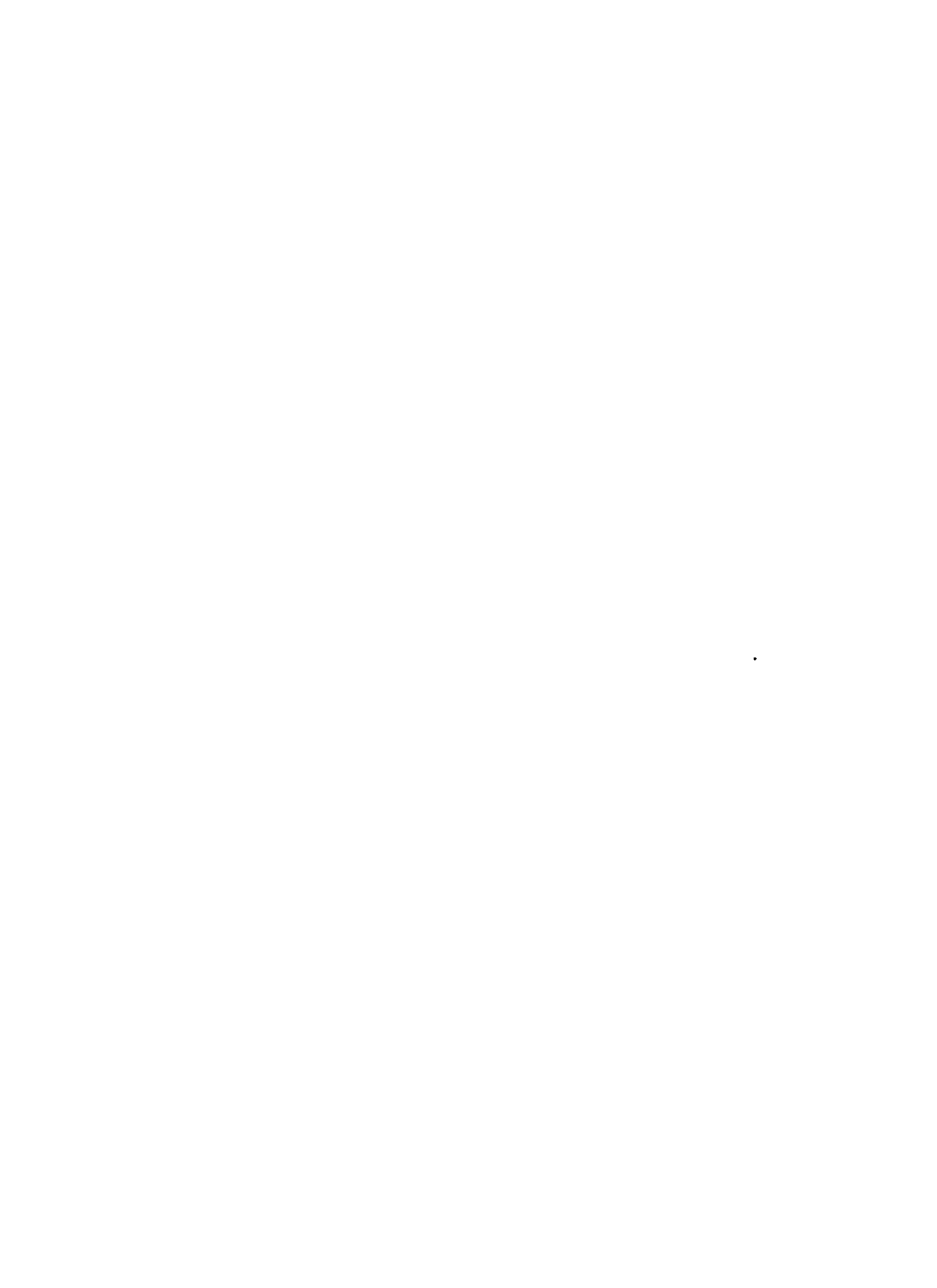
أولى بهذا القلب أن يَخفقا

وفى ضِرامِ الحبّ أن يُحرَقا

ما أضْيَعَ اليومَ الذى مرّ بى

من غير أن أهوى وأن أعشقا

(عمر الخيام ــ ترجمة أحمد رامى)



الاهـــداء . . .

إلى التي لم أكتب بعد قصتها . . .

. . . وهي التي أوحت إليّ بكتابة هذه القصص

ذات مساء من شهر اكتوبر عام . . . . . ؟



ميريام
الفتاة التي أرادت أن .... تنجح ؟!

أرى وقفتى ياليلَ كانت شريفـةً

ولـكنْ جزائى كان غير شريف

(مجنون ليلى ــ احمد شوقى بك)

مـــيريام . . .

لاسم « باريس » سحر لا تشاركها فيه مدينة أخرى من مدن العالم ، بل لا يعرف الناس مدينة تغنى بها الشعراء وتحدث عنها الكتاب والرواة كما تغنوا وتحدثوا عن باريس ..

ولا يعرف النـــاس مدينة انطبع اسمها على آفاق الخيال كما انطبع اسم باريس .

ومن منا زار باريس ولم يعش فيها ساعات أو أياماً فى عالم ما كان ولن يكون ! .

ومن منا زار باريس ولم يســترد ثقته فى نفسه وعاش كما يحب أن يعيش ... ولو ساعات ما بين نجمتين ! نجمة المساء ونجمة الصباح ! .

ومن الذى زار باريس وعاد منها من غير قصة يرويها بين الصحاب... وما أكثر ما تعيه الذاكرة من قصص باريس .. قصص قد تتقدمها ابتسامة وتتمشى فيها عبرة مكتومة وتختمها آهة من القلب الحزين .

قصص بلا « رتوش » لا ينقصها سوى « المخرج » لتكون « أفلاماً » من صميم الحياة .

وها هى ذى قصة فتاة غير مفهومة أو قل اننى لم أفهمها فى تلك الأيام . وكان ذلك منذ نحو ستة عشر عاماً .

أما اليوم فانى أفهمها . وهذه السنوات تكفى لأن تعلم الجماد والحجر ! ولقد قالت لى « ميريام » ذات يوم انى جماد وحجر ! .

و «ميريام» فتاة يهودية من المهاجرات اللاتى هربن من ألمانيا ولجأن الى باريس . وكان ذلك فى أواخر العام الأول من تولى هتلر السلطة أى فى عام ١٩٣٣

وعرفتها أنا فى مارس ١٩٣٤ . وكنت فى ذلك الوقت أقيم فى «ستوديو» أو شقة صغيرة فى شارع راسباى فى حى مونبارناس على قيد خطوات من قهوة «الدوم» . وكنت أمضى فى القهوة معظم ساعات الصباح أتصفح فيها الصحف . وخاصة صحف السباق . وفى باريس يقام السباق فى كل يوم . اما فى باريس نفسها أو فى ضاحية من ضواحيها .

واقبلت « ميريام » ذات صباح وطلبت من « الجرسون » قهوة باللبن وصنفا من الخبز اسمه (كرواسان) .

ولا يزيد ثمن القهوة باللبن والخبز على فرنكين أى نحو ثلاثة قروش (كان الجنيه يومئذ يساوى ٧٥ فرنكا) .

كانت ميريام تحضر فى الساعة الحادية عشرة صباحا وتغادر القهـوة فى الرابعة بعد الظهر . . وفى يدها كتاب تدرس فيه اللغة الفرنسـية . وتبادلنا التحية ذات يوم وجلست الى جانبها . . .

وبعد أسبوع عرفت منها أن القهوة باللبن والخبز هى طعام الفطور . . وطعام الغـداء .

وأما العشاء ! . هزت ميريام كتفيها بحركة لا شك أنها شرقية فهى كما قلت من بنات اسرائيل ، وقالت : — العشاء ! انه يكلفنى فرنكين اثنين لا غـير ! .

وساءلتها عيناى كيف يمكن هذا فقالت :

— نعم . فرنكان أجرة المترو الى الشانزليزيه ذهابا وايابا . . . وهناك أتمشى . . . وهناك يلقانى دائما من يدعونى لتناول العشاء . . وعلىّ بعدها أن أعرف كيف أتخلص من دعوته لكى أتناول معه القهوة فى مسكنه أو فى أحد الفنادق « اياها » التى تحيط بالشانزليزيه ! ؟

وابتسمت وقالت : ما ذا تريد ؟ . . يجب أن أعيش ! .

قلت : وهل تسمين هذا عيشا ؟ .

قالت : وماذا أستطيع ! . . اننى لا أتقن اللغة الفرنسية . . ثم مصلحة العمل هنا ترفض أن تعطينى أو تعطى أحد الأجانب بطاقة العمل . ومن غير هذه البطاقة لا أستطيع أن أكسب عيشى من أى عمل . اللهم الا . . .

ولمعت فى عينيها ابتسامة ساخرة فهمت منها نوع العمل الوحيد الذى تستطيع أن تمارسه الفتاة فى باريس من غير حاجة الى بطاقة ! .

ثم قالت : الصبر ! . . لن أبيع نفسى رخيصة . . ولسوف أنجح ! .

* * *

كانت « ميريام » يومئذ فى العشرين من عمرها ، متوسطة القامة ، مستديرة الوجه ، خمرية اللون . . عسلية العينين .

وعيناها كانتا أجمل ما فيها . وكان كل ما فيها جميلا ، أما شعرها فكان له لون النحاس . . . ولكنه فى نور الشمس . . كان يستحيل الى لون الذهب المذاب .

وذات يوم خسرت فى سباق الخيل كل ما كان معى من نقود الا مئات

قليلة من الفرنكات . . ولم أكن أنتظر نقودا من مصر قبل مضى أسبوعين .

واستبدلت سجاير « توفيق » ماركة لورانس وثمن الصندوق منها يومئذ ١٤ فرنكا بسجاير فرنسية لها طعم « النشوق » ولكن ميزتها أن ثمن العشرين سيجارة منها فرنكان اثنان ...

واكتفيت بوجبة طعام واحدة فى اليوم . فى مطعم متواضع فى شارع فوجيرار فى الحى اللاتينى واسم المطعم (منيون) ... ورحت أقتل الوقت بالتسكع فى شوارع باريس ماشيا على قدمى .

وتعذر على فى حالتى المالية هــذه أن أدعو ميريام لتناول الغــداء أو العشاء ... فقد كنت اعتدت أن أدعوها كل يوم تقريبا لتناول احدى الوجبتين .

... هذا ودون أن أدعوها لتناول القهوة ! لأننى كنت أتركها أمام المطعم وأقول :

— غدا فى الدوم !

وتشكرنى هى بكلمة أو بنظرة ... ويمضى كل منا فى طريقه .

وذات مســاء قابلتها فى مطعم « منيون » وكانت تتناول عشــاءها وحدها ، وأفسحت لى مكانا بجانبها وهى تسألنى بدهشة :

— ما الذى جاء بك الى هنا ؟.. انت ؟.. هنا ! .

قلت لها : وانت ؟ ما أبعد الشقة بين الشانزليزيه وفوجيرار ! .

قالت : لقيت اليوم عملا عند أحد الرسامين فقــد « وقفت » له — موديل — ونقدنى آخر اليوم ٢٠ فرنكا ولكننى لن أعود اليه غدا ...

قلت : لماذا ؟

قالت وهى تضحك : لقد دعانى لتناول القهوة ! وانت ؟ ماذا جرى حتى تتناول طعامك هنا ؟

وقصصت عليها تفاصيل نكبتى فى السباق ... وضحكنا كثيرا ذلك المساء .

***

وحل يوم عيد مولدى ... واحتفل به صديق مصرى كريم كان يدرس للحصول على دكتوراه القوانين ودعا الى مسكنه نفرا من أصدقائى الطلبة فى باريس . وسألنى هل هناك من أود أن أدعوه .

قلت : نعم . ميريام ...

ولبت هى الدعوة . وذهبنا معا — هى وأنا — الى مسكن الداعى...

وشربنا وطعمنا وأسرفنا خصوصا فى الشراب .. وغنى صديق لنا أغنية مصرية ثم دعونا ميريام للغناء .

وقامت ... ولن أنسى رقصها وغناءها ... ولسوف تمر سنوات وسنوات وصوتها يدق سمعى ورقصها مطبوع فى الذاكرة .

وقفت وتوسطتنا ونحن حولها فى شبه دائرة ... وراحت ترقص رقصة لا هى شرقية ولا هى غربية ...

كان جسمها الأهيف اللدن يتثنى ويتموج كالظلال على صفحة الماء الجارى ...

ثم انطلقت تغنى أغنية عبرية ... فيها نداء الشرق وحرارة الشرق

وسر القرون ... غناء حزين ولكنه قوى ... أشبه بصراخ الوحش الذبيـــح ! .

ثم هدأ رقصها .. وهدأ غناؤها وتهالكت هى على نفسها ثم جثت على ركبتيها .. وهى ترقص وتغنى ! .

ترقص بحركة يشترك فيها رأسها وخصرها !.. وتغنى .. بالعين والشفتين . غناء حبسنا أنفاسنا حتى نسمعه ...

غناء أخف همسا من نسيم السحر ...

ثم سكتت فجأة وسكنت حركاتها ...

وفجأة وقفت وهى تضحك وتقدمت من صديق بين الحاضرين وجلست على ركبتيه وطوقت عنقه بذراعيها وقبلته فى فمه ! .

وصفق الحاضرون لغنائها . . . أو لهذا المنظر الغرامى المفــاجىء لا أدرى ! .

وتطلعت عيون الى ... فأنا الذى دعوتها ... والمفروض انى صديقها ... فماذا أنا فاعل ؟ .

ولم أقل شيئا ... ومشيت الى شرفة الدار ووقفت فيها قليلا أطل على مقبرة « مونبارناس » .

ولحقت بى سيدة الدار — وقد تزوجت فيما بعد من صديقى الداعى — وقالت :

— هل غضبت ؟

وهززت رأسى لأن لسانى لم يطاوعنى . . .

قالت : اذن حزنت ؟ .

قلت وأنا أشد ابتسامة الى شفتى :

— ولماذا أغضب أو أحزن ؟ ! .

وقالت هى : اذن خذها وانصرف ! .

وقلت : ولماذا آخذها ؟ ربما تريد البقاء أو لعلها تفضل أن يصحبها صديقى فلان الى مسكنها ...

وأمسكت سيدة الدار بكتفى وقالت : انك أحمق ! ألا ترى أنها تريد شرا ؟.. خذها وانصرف قبل أن تأتى أمرا لا يمكن اصلاحه ! .

وعدت الى قاعة الجلوس ... وكانت « ميريام » جالسة فى مقعد ساهمة ويداها فى حجرها ...

واستأذنت شاكرا وانصرفنا نحن الاثنان ...

وفى الشارع قلت لها : هل نركب تاكسى أم نمشى ؟ .

قالت : سأذهب وحدى الى مسكنى ...

ومددت اليها يدى أحييها .. ورفعت هى يدها ولطمتنى على وجهى ! ثم انطلقت تعدو فى الشارع ...

* * *

ومر شهر تقريبا كنت أراها وكانت ترانى . وكان كلانا يتجاهل صاحبه ولا يحييه ...

وحان يوم سفرى وعودتى الى مصر ... وودعت أصدقائى وودعونى .

وآويت فى المساء الى مسكنى أحزم أمتعتى استعدادا للرحيل فى الصباح ودق جرس الباب ... واذا بالطارق ميريام .

ودخلت وجلست على حافة مقعد وقالت :

— سمعت انك تسافر غدا فجئت لأشكرك على كل الطعام الذى دفعت ثمنه عنى ...

وكانت السخرية تشوب لهجتها ...

وقلت لها وأنا جالس على احدى الحقائب :

— ولكنك شكرتنى فعلا .. وبطريقة عملية !.

قالت وهى تبتسم : كم عمرك ؟ .

ودهشت أنا ... ما علاقة عمرى بما نحن فيه ! .

قالت : يظهر انك اما مغرور أكثر مما يجب أو عبيط أكثر مما يجب ... قل لى ... لماذا لم تدعنى يوما لتناول القهوة كما كان يدعونى كل رجل يلقانى ؟.

قلت وأنا أكتم غيظا : احتراما لفتاة لا تستحق شيئا من الاحترام !

قالت وفى عينيها بريق : ومن أنبأك أن فتاتك تريد احترامك ؟.. أو تريد الاحترام فقط !..

وقلت أنا : وهل كنت تلبين دعوتى لتناول القهوة لو كنت سألتك ؟.

قالت : كلا ... ولكن مجرد الدعوة كان يرضينى . وكان يشعرنى انك رجل ... لا حجر ولا جماد ... وبعد من يدرى !..

وسكتت لحظة ثم قالت : ويوم رقصت وغنيت فى حفلتك ...

قلت لها : لم تكن حفلتى ... لأن الذى أقامها صديق لى ...

قالت : أعرف ... ولكنها حفلة أقيمت لك .. ولقد رقصت فيها

وغنيت من كل قلبي لك .. ولك أنت ! فماذا ؟.. كنت جالسا ساكنا ... كان أصدقاؤك يلتهمونني بنظراتهم بينما أنت كنت جالسا تشبك أصابعك ثم تفردها ... كأن المشهد الذي يجرى أمامك يسئمك ولا يمنعك من التثاؤب سوى مجرد الأدب .. وفى الشارع ليلتها ، لطمتك ... وتركتنى انت أمضى فى سبيلى ! حتى لم تحاول أن تسألنى لماذا لطمتك ؟ .

ووقفت تريد الانصراف . ووقفت أنا ...

وقالت وهى تقترب وتبتسم :

— حتى الآن ... لا تدعونى لتناول قدح من القهوة ؟ .

وغالبت شيئا فى نفسى وقلت :

— ما الفائدة ! اننى أسافر صباح الغد ...

وهزت كتفيها وقالت :

— أحمق !! أو تظن اننى كنت أجيب دعوتك ..

ومشت الى الباب ثم التفتت وقالت :

— ولكنك لم تقل لى لماذا كنت ظريفا معى ؟.. لماذا كنت تدعونى لتناول الغداء والعشاء ! لقد كان يخيل الى انك سعيد فى صحبتى ..

قلت : — لأنك كنت غريبة وحيدة فى باريس ..

وصرخت هى وقالت :

— كلا ... كل شىء الا شفقتك ... لا أريدها ..

وخرجت ... وكان هذا فى شهر يونيه ١٩٣٤

* * *

وذات مساء فى يونيــة ١٩٣٧ ... وكان وفد مصر لدى مؤتمر الامتيازات قد عاد الى باريس .. دعوت أحد أعضــاء الوفد والسيدة المحترمة زوجته لمشاهدة موريس شيفالييه فى مسرح الكازينو ده باريس .

وعند باب الخروج وقفنا ننتظر سيارتنا الخاصة ..

وأقبلت سيارة فخمة ووقفت أمام مدخل دار السينما الملاصق للكازينو ده باريس وأظن أن اسمه الاديون .

وأسرع سائق السيارة الأنيق ونزل وفتح باب السيارة .

ونزلت من السيارة فتاة ترتدى ثياب السهرة وحول عنقها فراء ثمين ... وتحلى أذنيها وصدرها جواهر تتألق ويخطف بريقها الأبصار .

وكانت الفتاة ... ميريام ! وتلاقت النظرة ... نظرة خاطفة ! .

هل عرفتنى ؟ أما أنا فقد عرفتها بعد ثلاث سنوات ... ولكن هى هل عرفتنى وخصوصا بعد أن حلقت شاربى الصغير ؟ .

أظن أنها عرفتنى فقد قرأت فى نظرتها السريعة القصيرة ... « آه .. هذا أنت » ! .

وقلت لنفسى ليلتها وأنا أتقلب فى فراشى :

— لقد أرادت ميريام ألا تبيع نفسها رخيصة .. وأن تنجح ! وقد نجحت ... والثمن غال ! .

ولكن من الذى دفع الثمن ! .

هناك بائع ومشتر ... وعابر طريق ! .

من الذى دفع منهم الثمن الغالى !.. البائع أم المشترى أم عابر الطريق ! .

ماريا كريستين

ارادت ان تنجو ! وأبيتُ عليها النجاة !

يا أختَ ناجيةَ السلام عليكمو
قبل الرحيل وقبل عذل العذّل
لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعل

(جرير)

ماريا كريستين

غادرت باريس فى أول شهر يوليو سنة ١٩٣٧ الى «فيشى» مدينة المياه المعدنيـة المشهورة . لا بقصد الاستشفاء وانما لموافاة جريدة المصرى — وكنت يومئذ أحد أصحابها — بوصف رحلة صاحب الجلالة الملك .

وكان صاحب الجلالة وصاحبة الجلالة الملكة نازلى وصاحبات السمو الأميرات وأفراد الحاشية قد غادروا باريس فى ذلك اليوم الى فيشى ليمضوا فيها نحو ثلاثة أسابيع قبل أن يستقلوا الباخرة « النيل » عائدين الى مصر بعد رحلة دامت نحو خمسة شهور .

ولكننى لم أبق فى فيشى سوى يومين اثنين أديت فيهما مهمتى الصحفية ثم قررت أن أسافر الى « فيينا » وأمضى فيها عشرة أيام .

ولما سألنى أصدقائى من أفراد الحاشية الملكية عن سبب هذه الرحلة المفاجئة قلت لهم . . . (توفيق باشا نسيم . . . أريد أن أتحرى التفاصيل وأبعث مقالا بها الى «المصرى») .

وكانت الأخبار قد جاءتنا أن المغفور له توفيق نسيم باشا قد أحب فتاة نمسوية من عامة الشعب وأنه ينوى الاقتران بها .

ولكن سفرى الى فيينا لم تكن له أية علاقة بحكاية توفيق باشا نسيم... والحقيقة أننى كنت متعبا ومريضا . وموطن المرض لم يكن الكبد أو الأمعاء

والا لوجدت فى فيشي ومياهها المالحة الشفاء أو بعض الشفاء وانما كنت مريض النفس لا مريض الجسد ! .

وكان من نتائج هذه الحالة النفسية السيئة أن أصبت بهبوط فى ضغط الدم مصحوب بدوار .

وأنا كثيرا ما أشكو حتى اليوم من هذا الدوار . . الذى كان سببه فيما مضى الهبوط فى ضغط الدم .

أما سببه اليوم — اذا ما زارنى — فهو الارتفاع فى ضغط الدم ! .

والطب حائر فى أمرى ! .

وأما أصدقائى فانهم يسخرون ويتهموننى بأننى اخترعت حكاية ضغط الدم هذه لكى أعطى نفسى أجازة متصلة أقضيها متنقلا فى رحلات بين الشرق والغرب بحجة استشارة الأطباء ! .

* * *

وغادرت فيشى فى الصباح ووصلنا الى فيينا بعد ظهر اليوم التالى وكان فى نيتى أن أمضى فى عاصمة النمسا يومين أو ثلاثة ربثما أبتاع بعض الهدايا التى طلبها منى أصدقاء وصديقات فى مصر ثم أمضى الى الريف أو التيرول النمسوى وأستريح أياما قبل أن أعود الى فيشى لكى أصحب الركب الملكى فى عودته الى مصر .

ونزلت فى الفندق الذى اعتدت النزول فيه كلما زرت فيينا وهو «جراند أوتيل» وقال موظف الاستقبال بينما كنت أملأ استمارة الوصول :

— هل يحمل السيد أشياء ذات قيمة ؟ .

قلت : مثل ؟ .

قال : مجوهرات أو مبلغا ماليا كبيرا ؟ .

قلت : أما المجوهرات فلا . . . ولكن معى مائة جنيه انجليزية . . . فهل تراها مبلغا كبيرا ؟ ولكن لم السؤال ؟ .

قال : لأن فنادق المدينة أصبحت ميدانا فى هذه الأسابيع الأخيرة لنشاط عصابة من جرذان الفنادق ... وليس فندقنا وحده فهناك بريستول وامبريال . . . وفى كل ليلة تقريبا تقع سرقة ما فى أحد الفنادق الكبيرة . وحتى الآن لم يستطع البوليس أن يهتدى الى اللص أو اللصوص . . . وانى أنصح سيدى أن يودع خزانة الفندق أى شيء يخشى عليه . . .

قلت وأنا أبتسم : على كل حال لن أبقى فى فندقكم سوى يومين . . . ومتى انتهيت من مشترياتى فلن يتبقى من المائة جنيه شيء كثير . . .

وجرذان أو فار الفنادق اصطلاح قديم معناه اللص الذى تخصص فى التسلل الى غرف الفندق وسرقة ما تصل اليه يده من مال أو متاع السائحين.

* * *

وكانت فيينا يومئذ عاصمة بلا دولة .

أو كانت هناك دولة ولكن بالاسم . . دولة بلا موارد . . . فقد كانت النمسا قد خرجت من الحرب العالمية الأولى فقيرة مفلسة . فقدت امبراطوريتها الواسعة وفقدت معها كل شيء . . .

وبعد أن كانت فيينا عاصمة لامبراطورية واسعة تضم نحو سبعين مليونا من السكان . . . أصبحت عاصمة لدولة مقصوصة الأطراف يسكنها نحو ستة ملايين . . .

ومن هؤلاء الملايين الستة كان يقيم فى فيينا وحدها نحو ثلاثة ملايين .
وكان الزائر الأجنبى يشهد مظاهر الفقر والجوع فى كل مكان . . .
كان يرى مثلا فى شوارع المدينة الجميلة ضباطا عظاما من ضباط الجيش النمسوى الامبراطورى القديم وهم فى ثيابهم العسكرية الممزقة وعلى صدورهم شارات الأوسمة والنياشين التى حصلوا عليها فى ميادين الشرف والفخار . . . ولكنهم كانوا يقفون أمام أبواب الفنادق الكبرى والمطاعم والمقاهى يتسولون . . .
كان الضابط منهم يقف أمامك ويضم راحتى يديه الى صدره ويحنى رأسه . . ولا يقول شيئا ! .
تسول صامت هو أشد أثرا فى النفس من عبارات الاستجداء المعروفة فى مصر وفى ايطاليا والمصحوبة بأسماء الله والقديسين .
وتجود أنت على الضابط . . . أو تصرفه باشارة من يدك .
وغير هؤلاء الضباط جنود عجزة من مشوهى الحرب . . ونساء وفتيات وأطفال .
جوع وفاقة وبؤس فى كل ركن من أركان المدينة الجميلة الأنيقة .
ومع ذلك فقد كانت فيينا يومئذ فردوس السائحين الأجانب وخصوصا من الأمريكان والانجليز الذين ازدحمت بهم الفنادق الكبرى . ذلك لأن الحياة فى فيينا — وحالها من الفقر كما وصفت — كانت سهلة رخيصة على الزائر الأجنبى . . .
وبالمال ... بقليل من المال كان يمكن للزائر أن يشترى كل شىء وأى شىء .

وبأربعين شلنا نمسويا — أى جنيهين اثنين — كان يمكن أن تمضى سهرة تجمع فيها بين الطعام والشراب والموسيقى والجمال .

نعم حتى الشباب والجمال كانت أسعارهما فى فيينا رخيصة اذا قيست بأسعار لندن وباريس ! .

وكنا لا نزال فى شهر يولية ١٩٣٧ أى قبل أن يزحف هتلر على النمسا ويعلن ضمها الى الريخ الثالث وألمانيا الكبرى . . . وهو ما وقع فى شهر مارس ١٩٣٨ .

وبعدها لم تعد فيينا فردوس السـائحين . . . وانما أصبحت جحيم اليهـود ! .

* * *

وكان عدد كبير من أغنياء اليهود الألمان قد هربوا من ألمانيا عبر الحدود ولجأوا الى فيينا عاصمة النمسا المستقلة فرارا من هتلر والنازيين ومن حمل نجمة صهيون الصفراء التى فرض هتلر عليهم حملها على صدورهم وظهورهم كلما ساروا فى شوارع برلين حتى يعرف كل أحد أن هؤلاء هم أعداء الشعب اليهود ! .

وكانت فيينا غاصة بهم وبمتاجرهم وحاناتهم ومطاعمهم . . وكان شارع كرتن أو كرتنشتراس — وهو أشبه بشارع الموسكى أو شارع فؤاد الأول أى حى التجارة والبيع والشراء — كان معظم دوره ومتاجره ملكا لليهود . . .

وكانت صديقة لى فى القاهرة قد طلبت منى أن أبتاع لها حذاء وقفازا

وحزاما كلها مصنوعة من نفس الجلد .. جلد الثعبان . ولم تكن هذه « الموده » قد انتشرت يومئذ كما هى الآن . . .

ولم أعثر على حاجة السيدة الصديقة فى زيورخ ولا فى لندن ولا فى باريس . . . ومشيت فى كرتنشتراس . . . ودخلت محل « كلاين » للبضائع الجلدية . وقد هرب كلاين بعد دخول النازيين النمسا وفتح محل تجارته فى تل أبيب .

ووقفت أشرح لموظف المحل حاجتى وأصف له — طبقا لتعليمات السيدة الصديقة — كيف يكون الحزام والحذاء والقفاز ومن أى مقاس .

وكان الموظف لا يعرف من الانجليزية والفرنسية سوى ألفاظ قليلة . . . ولكنها كانت على كل حال أكثر من الألفاظ التى أعرفها أنا من اللغة الألمانية ! .

وتعذر على شرح ما أريد . والتفت الرجل الى سيدة على مقربة منا وكانت تختار حقيبة يد وسألها ما اذا كانت تعرف الفرنسية أو الانجليزية ؟ وهل تتكرم وهى مشكورة بالترجمة بيننا ؟ .

وحنت السيدة رأسها بأدب وسألتنى بالفرنسية — وبنطق سليم — عن حاجتى . . .

وكانت هذه أول مرة رأيت فيها ماريا كريستين ...

أما آخر مرة رأيتها فيها فكانت فى باريس وفى شهر ديسمبر ١٩٣٨ .

* * *

وفى مساء نفس اليوم كنت فى بار الفندق أتحدث مع (البارمان) أوسكار . . .

ودخلت السيدة التى كنت قابلتها فى محل كلاين منذ ساعتين أو أقل وحنيت رأسى لها . ودارت عيناها كأنها تبحث عن شخص ما .

ولما لم تجده أقبلت على وقالت وهى تجلس فى مواجهتى على مقعد عال من مقاعد البار الامريكانى . . . قالت :

— هذا هو السيد الذى لا يعرف اللغة الألمانية ! .

وقلت وأنا ابتسم : — وهل تعرفين اللغة العربية ؟ .

قالت : العربية ؟ . يالها من فكرة ! .

قلت : اذن فأنت السيدة التى لا تعرف اللغة العربية ! .

ضحكت وقالت : ومن الذى يعرف هنا اللغة العربية ؟ .

قلت : أنا . . .

سألتنى : هل أنت عربى ؟ .

قلت : نعم . . . مصرى . . .

— ولكن ... (وأنا أشير لاوسكار) هل تتناولين شيئا ؟ .

قالت : شكرا . . . الحقيقة اننى على موعد هنا مع صديق دعانى لتناول العشاء . . .

ثم أضافت بابتسامة — ولكن لا يبدو عليك أنك مصرى ؟ .

قلت : لماذا . . . وهل تعرفين مصريين ؟ .

قالت : نعم . فأنا أعرف وزير مصر هنا . . . وهو رجل مهذب مثقف . . ولكنه مثل جميع المصريين الذين قابلتهم أسمر اللون . . . أسمر جدا . .

قلت : نحن أمة هضمت مختلف الأجناس والشعوب . . . فعندنا السمر والبيض والحمر والشقر . . وبين نسائنا من بشرتها أنصع بياضا من بشرتك . . بل معذرة — وأكثر جمالا منك ! .

ضحكت وقالت : هذا اطراء غير مباشر . . وهل ترانى جميلة ؟ .

قلت : أنت الآن تتصيدين المديح ! ولكن هل تسمحين لى أن أقدم لك نفسى . . .

وذكرت اسمي. وقالت هي ان اسمها الآنسة لاندو... ماريا كريستين لاندو ثم نظرت الى الساعة التى تحيط بمعصم يدها وقالت بضجر . . .

— ولكنه تأخر ... صديقى الذى دعانى لتناول العشاء !.

قلت : من حسن حظى ! .

ابتسمت وقالت وهى تدير بين أصابعها الكأس التى وضعها اوسكار أمامها :

— أهذه محاولة فى الغزل ؟ .

قلت : بل هى الحقيقة . . .

* * *

ولم تكن ماريا كريستين لاندو فى الحقيقة فتاة جميلة اذا كان الحكم بمقاييس الجمال . ولكن كان فيها (شىء) ما . . .

شىء ما تحسه النفس وتخطئه العين .

... سمه سحرا أو جاذبية أو شخصية أو أنوثة متدفقة ... أو هو مزيج من هذا كله .

شعرها كستنائى اللون . وجبينها ضيق ما . وأنفها مرهف مستقيم أشبه بأنف الجواد الأصيل . ومن تحته فم واسع وشفتان ممتلئتان .

وأما عيناها فلست حتى اليوم أعرف هل كان لونهما أسود أو أزرق داكنا أو مزيجا من اللونين .

وبشرتها ناصعة البياض . ممشوقة القد . متوسطة الطول . وعمرها ؟ ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين .

وأحلى ما فيها (غمازتان) فى خديها . واذا ابتسمت غاصت (الغمازتان) .

هذه هى ماريا كريستين كما رأيتها ولكن كان فيهـا — كما قلت — شىء لا تراه العين ! .

كانت فيها — ولعلى أحسن التعبير — كانت فيها (قوة الحياة) . القدرة على أن تحيي بكل قواها فى اللحظة التى هى فيها .

ارهاف فى الحساسية أم براعة فى التمثيل لست أدرى !.. ولكنها كانت تذوب ذوبا فى احساس اللحظة أو فى عاطفتها ... فاذا فرحت انبعث منها نور يملأ ما حولها بهجة ومرحا وسرورا ...

واذا حزنت خيل اليك أن خدها شحب وأن شفتها تدلت وجبينها اكتأب وأنفها الرقيق المرهف ارتجف وأن عينيها تدمعان ... ولـكن من غير دمع ! .

الى هذا الحد كانت قوة الحساسية أو قوة الحياة فيها .

أم تراها كانت ممثلة فنانة تفنى فى دورها وتذوب ؟ .

هذه هى ماريا كريستين كما عرفتها خلال اليومين اللذين أمضيتهما معها فى شهر يوليه ١٩٣٧ .

وطال سكوتها ... وهى تدير الكأس بين يديها ...

وقلت أنا : هل يؤسفك كثيرا أن صديقك قد تأخر ؟ .

وابتسمت عيناها طويلا قبل أن تقول : — ان صديقى لن يحضر ! .

قلت : كيف ؟ .

قالت بصوت منخفض : — هل أستطيع أن أكون صريحة معك ؟ .

قلت : بكل تأكيد ...

قالت : ليس هناك صديق قد دعانى لتناول العشاء ! .

وقلت أنا بابتسامة : لقد حذرت هذا ! .

قالت : كيف ؟.. هل أنت ساحر من الشرق ؟ .

قلت : كلا ... ولكن لأنه ما من رجل ينسى موعـده مع فاتنة مثلك ... أو يبقيها طويلا فى انتظاره ! .

وابتسمت وهى تقول : انك تجيد دائما الاطراء والغزل ! .

قلت : بل هى الحقيقة ...

وسكتت لحظة ثم قالت : وهل أنت تقول الحقيقة دائما ؟ .

قلت : اذا لم يكن فيها ما يسوء الآخرين ! .

سألتنى : هل أنت متزوج ؟ .

قلت : كلا ...

قالت : لمن اذن الحذاء والحزام والقفاز التى أوصيت كلاين بصنعها من جلد الثعبان ؟ .

وضحكت أنا وقلت : لصديقة فى مصر ...

قالت : وهل تحبها الى هذا الحد ؟ .

قلت : وهل شراء هدية دليل على الحب ؟ .

قالت : ولكنك قلت لى فى محل كلاين أنك بحثت عن هديتك هذه فى لندن وباريس ... فهل قدمت فيينا خصيصا لشرائها ؟ .

قلت (وقد أحببت أن أجاريها فى فضولها) : ربما ! .

قالت : اذن فأنت تحب صديقتك هذه ! .

قلت : كلا . هى صديقة ليس الا ...

قالت : اذن ما أكبر وفاءك ! .

قلت : ما أسهل الوفاء فى الأمور التافهة ! .

سكتت لحظة ثم قالت : — ولكنك لم تسألنى لماذا كذبت عليك ؟ .

وابتسمت أنا وقلت : — ربما لكى لاتكذبى مرة ثانية ! .

وغاصت الغمازتان فى خديها وهى تضحك وتقول :

— الحقيقة اننى كنت أشعر بالوحدة والملل هذا المساء ... ولقد كرهت أن أتناول العشاء وحدى ...

وقلت أنا : ولهذا زعمت أنك تنتظرين صديقا قد دعاك ؟ .

قالت : نعم حتى اذا طال انتظارى ...

قلت : دعوتك أنا لتناول العشاء ! .

قالت : تماما ... هل ساءتك صراحتى ؟ .

قلت : كلا . ولكن يخيل الى اننى صديق المصادفة ؟ .

قالت : لم أفهم ! .

قلت : أعنى أنك دخلت « البار » وفى نيتك أن تمثلى نفس الدور مع أى سيد تلقينه هنا ؟ .

ابتسمت وقالت : على شرط أن يعجبنى ! .

قلت : وهل أعجبتك ؟ .

قالت : لا تكن مغرورا ...

قلت : هل لى بدورى أن أسألك سؤالا ؟ .

قالت : نعم ...

سألتها : لماذا سألتنى ما اذا كنت متزوجا ؟ .

ابتسمت وقالت : لعلنى أخاف على سمعتى ! .

قلت : وسر اهتمامك بالهدية ولمن أشتريها ؟ .

أجابت والغمازتان فى خديها : لعلها الغيرة ! .

قلت : هذه سخرية لا أستحقها ...

قالت : أو مديح لا تستحقه !.. والآن هل تدعونى لتناول العشاء او أدعوك أنا ؟ .

قلت : نتناول العشاء أولا ... وبعدها نحسم هذا الاشكال .

قالت : هو كذلك ...

ونهضت ماريا كريستين واقفة تستمهلنى دقائق ريثما تمضى الى غرفتها وتحضر معطفا تتقى به طراوة الليل ...

لقد كانت تقيم فى نفس الفندق « جراند أوتيل » ! .

* * *

وسألت أوسكار وأنا أشعل سيجارة من تكون هذه الآنسة لاندو ؟ .

سألته — كما قد تقول — ابراء لذمتى ! أما أنا فلم أظن بها خيرا كبيرا ...

وهل كان فى الامكان أن أظن بها غير ذلك ! .

فتاة تدخل « البار » وتجاذبنى — أنا الأجنبى الغريب عنها — أطراف الحديث ... وأى حديث !.. ثم تدعو نفسها لتناول العشاء ! .

وابتسمت وأنا أقول فى نفسى :

— حقا ان فتيات فيينا أسرع جدا فى العمل من فتيات باريس ! .

ولكن . ماذا يهم ! واذا كانت الآنسة لاندو تكره أن تتناول العشاء وحدها ... فأنا كذلك يسرنى أن لا أمضى السهرة ... وحدى ! .

وقال أوسكار : الآنسة لاندو ؟ كل ما أعرفه عنها أنها من أسرة بولندية عريقة . وان أباها الذى توفى منذ عامين كان سفيرا لدولته فى برلين ...

قلت وقد بدأت أراجع نفسى فى أمر الفتاة : وهى تقيم هنا فى الفندق بمفردها ؟ .

وقال « البارومان » نعم ... ريثما تتم معدات زواجها ...

قلت بدهشة : زواجها ! .

قال : نعم ... ألم تقل لك أنها مخطوبة للكونت أنطون جالماش ؟ .

قلت : كلا ... لم تقل لى شيئا عن هذا ...

قال : نعم ... وخطيبها كما يقولون من أغنياء المجر ... وهو يتردد عليها هنا ... وهى كذلك تزوره أحيانا فى بودابست ...

وقطعنا الحديث فجأة ، فقد عادت الآنسة لاندو ...

* * *

وسألتنى ونحن فى طريقنا الى مطعم « ساخار » ...

— وهل تقيم طويلا فى فيينا ؟

قلت : ريثما ينتهى كلاين من صنع الحذاء والقفاز... أى ثلاثة أيام...

قالت : وبعدها ؟ .

قلت : لا أعرف ... ربما أذهب الى جالمباخ أو سالزبرج ومنها الى سان وولفجانج ... على كل حال فان اقامتى فى النمسا لن تزيد على عشرة أيام أعود بعدها الى فيشى .

قالت : لماذا ؟ .

وقلت لها السبب ...

قالت : اذن فأنت صحفى ؟ .

قلت : نعم ... هل لك اعتراض ؟ .

ابتسمت وقالت : كلا ...

وخيل الى أنها كانت تريد أن تضيف شيئا ولكنها أمسكت .

ثم عادت بعد لحظة تقول :

— ما أجمل سان وولفجانج والبحيرة فى ليالى الصيف ... وفندق الحصان الأبيض وأقبيته المملوءة بالنبيذ المعتق ... انه عش غرام يأوى اليه العشاق وطلاب شهر العسل ! .

وقلت فى نفسى : ما أغرب هذه الفتاة وما أجرأ حديثها ... ثم هى مخطوبة ...

واستمرت هى تقول :

— ... ولكن قل لى أى سرور تجده فى الذهاب وحدك الى سان وولفجانج ؟ .

وقلت أنا : هل هذه دعوة ... مثل دعوة العشاء ؟ .

أجابت : ماذا تظن ؟ .

قلت ضاحكا : أظن اننا عن غير قصد قد بدأنا نقرأ معا الفصل الأول فى كتاب الغزل ! .

وقالت وهى تضحك معى : وهل تقرأ الكتاب الى النهاية ؟ .

قلت : وهل يكفى يومان أو ثلاثة لقراءة الكتاب كله ؟ .

قالت : اذن نكتفى بقراءة فصل واحد ؟ .

وضغطت على ذراعها برفق وأنا أقول :

— كنت أفضل أن أقلب صفحات الكتاب كله ... ولو أمر سريعا بالعناوين ! .

قالت : هذا هو الشرق ... !

* * *

وحول المائدة فى مطعم ساخار سألتنى :

— ماذا قال لك أوسكار عنى ؟ .

ولما حاولت أن أصطنع الدهشة قالت :

— لا تحاول الانكار ! .. أمر طبيعى جدا أن تسأل أوسكار عنى ومن أكون !.

قلت : نعم ... ولكنه لم يقل شيئا كثيرا ...

ورويت لها ما سمعته من أوسكار .

وقالت ماريا كريستين : وهل صدقت كل ما سمعته ؟ .

هززت كتفى وأنا أقول : صراحــة لم أهتم بالوقوف طويلا عنــد الذى سمعته .

قالت : نعم . افهم هذا . ان هى الا معرفة المصادفة أو صداقة عابرة ... يوم أو يومان فعلام الاهتمام ! .

قلت : ربما ... وهل تلومينني ؟ .

قالت وكأنها لم تسمع سؤالى ...

ـ ... فتاة مخطوبة ... ثم هى تمثل معك دورا لكى تدعوها لقضاء السهرة معك ! ماذا يمكن أن تظن فيها ! .

وبدأت أحس حقيقة حرجا ثقيلا ... وان الحديث قد اتخذ طريقا خطرة ... وان الحزن الذى بدا فجأة فى عينى الفتاة يوشك أن يحيل الموقف بينها وبينى الى ما لم أكن أحب أن يكون ! .

ماذا أقول ! .

وأردت أن أغير مجرى الحديث فقلت وأنا أحاول الابتسام :

ـ مازلت أنتظر أن نبدأ معا قراءة الفصل الأول فى كتاب الغزل ! .

ولكنها لم تجب ... وراحت تتشاغل بتنــاول طعامها ... وكانت تسرف فى الشراب .

وبعد سكوت طويل قالت :

ــ حدثني عن نفسك ... كيف تعيش ... أقصد فى مصر ؟ .

ولما انتهيت من حديثي قالت : اذن فأنت تعيش وحدك ؟ .

قلت : نعم ... وأنا أحب الوحدة !

قالت : ولكن الوحدة ترف لا يطيق تكاليفه سوى القادرين ! .

قلت : هذا رأى جديد ! .

قالت : نعم الوحدة ترف ... ترف ليس فى طاقة كل أحد ... أقصد الغنى عن الناس ... والغنى عن السعى ... والغنى عن الجرى فى سبل الحياة ... والغنى عن الاختلاط بمن لا تحب أن تعرف ... هـذه هى الوحدة ...

وكان فى صوتها عمق ومرارة ! .

وقلت فى نفسى مرة أخرى : يالها من سهرة ! .. ويالها من فتاة ! .

وكأنما أحست ماريا كريستين بما يجول فى نفسى لأنها ... وفجأة ــ تبدل وجهها من النقيض الى النقيض ... كأنما حزنها كان قناعا ... وقد سقط القناع ...

وشاع المرح فى وجهها وبرقت عينـاها وغاصت « الغمازتان » فى خديها وقالت ووجهها كله يبتسم :

ــ هل نبدأ الآن قراءة الفصل الأول ؟ .

وانتهت السهرة على خير ما يمكن أن يكون ...

ولما عدنا الى الفندق ... وأمام باب المصعد هممت بتقبيلها ولكنها صدتنى برفق وهى تبتسم وتقول :

— مهلا ... نحن لم نصل بعد الى هـذا الفصل من الكتاب ... سعدت مساء ! .

وفى الصباح ذهبنا الى ضاحية « سيمرنج » القائمة فوق جبل عال . وتناولنا طعام الغذاء فى فندقها الكبير وأمضينا السهرة فى حانة صغيرة تظللها عرائش تسلقت فوقها الزهور التى تتدلى من بينها مصابيح يابانية مختلفة الألوان ...

وتناولنا عشاء بسيطا ونحن نطل على الوادى الممتد الى فيينا ...

وتحدثنا طويلا ... حدثتها عن عملى الصحفى ... وعن رحلاتى .

وحدثتنى عن نشأتها وعن أبيهـا ... وعن أمها التى توفيت قبل أبيها ... وكيف أنها كانت ابنة وحيدة ... وكيف أنها زارت معظم عواصم أوربا وأنها تعرف جيدا لندن وباريس ...

وسألتها : أليس لك أقارب يعنون بأمرك ؟ .

قالت : لى أقرباء فى بولندة ... ولكنهم لا يعنون بأمرى .

قلت : كيف ؟ .

قالت : ألم تسمع عن القريب الفقير ؟ أنا هو ...

وقالت ماريا كريستين ونحن فى طريق العودة الى فيينا :

— لم تسألنى عن خطيبى ؟ .

وكان السؤال فجأة ومن غير مناسبة ...

وقلت أنا : وبأى حق أسألك ؟ .

قالت وقد تناولت يدى بين راحتيها :

ـــ بالحق الذى منحته نفسك عندما أردت أن تقبلنى مساء أمس ! .

قلت وقد أخذت وجهها بين يدى : هذا أمر آخر ! .

وقالت وهى تتخلص من بين ذراعى : هل أعجبك ؟ .

قلت وأنا أداورها : ولماذا اذن قبلتك ! .

قالت : ليس هذا جوابا ... ولماذا تروى ظمأك بكأس فى حانة !.. ولماذا تشم زهرة تقطفها فى عرض الطريق !.. ولكنى أسألك هل أعجبك حقا ؟ هل تود أن أكون دائما معك ؟ .

قلت بابتسامة . يالها من سرعة ! اننى ألهث من الجرى وراءك ! .

قالت : لا تمزح ... وأجب على سؤالى ...

قلت : بعد أربع وعشرين ساعة ؟.. لقد تقابلنا مساء أمس فقط ... ثم خطيبك ؟ .

هزت كتفيها وقالت : طونى ... أوه ... انه خطيب المصادفة ! .

وقلت أنا بسرعة : وأنا صديق المصادفة ! .

ونظرت الى ماريا كريستين طويلا قبل أن تقول ببطء وهدوء :

ـــ نعم . وقد تكون نجاتى فى هذه المصادفة ! .

قلت : نجاتك من ماذا ؟.. اننى لا أفهم .

قالت وقد أخذت يدى مرة أخرى بين راحتيها :

ـــ ربما من الخير لك أن لا تفهم ! .

ولما عدنا الى الفندق وسألتها ما اذا كنا سنلتقى فى الصباح اعتذرت بأنها على موعد ... ثم نظرت الى طويلا أو خيل الى ذلك ـــ قبل أن تقول :

— ولكننا قد نلتقى فى المساء . . . فى « البار » . . .

* * *

وأعترف انى شغلت ليلتها بالتفكير فى ماريا كريستين . . . وفى غرابة أطوارها . . .

وفى مساء اليوم التالى جلست أنتظرها فى بار الفندق . . . ولكنها لم تحضر . ولما طال بى الانتظار سألت عنها مكتب الاستقبال . . .

— الآنسة لاندو ؟ . . ولكنها غادرت الفندق بحقائبها هذا الصباح !

سألت الموظف : هل تعرف الى أين ؟ .

قال : كلا . والآنسة لم تترك عنوانها .

وتركت مكتب الاستقبال وأنا أقول فى نفسى : هكذا . . . ولما نقرأ الكتاب معا . . . حتى ولا فصلا واحدا من الكتاب ! .

وبعد يومين جاءنى خطاب يحمل ختم بريد بودابست . .

والخطاب من ماريا كريستين وفيه (لو أنك سألتنى أن أصحبك الى مصر لكنت قبلت بدون تحفظ . ولكنك لم تفعل لأنك لم ترد أن تؤمن بالمصادفة وان المصادفة قد يكون من ورائها خير كثير . ولقد فضلت أن أخرج من حياتك قبل أن تتركنى ! معذرة عن تخلفى أمس عن الموعد . سفرا سعيدا ولا تسىء الظن بى كثيرا) .

هــذا كل الخطاب . وقلت فى نفسى انها مجنونة ! تريد أن تربط حياتها بحياتى بعد معرفة ثمان وأربعين ساعة أو أقل ! .

وفى مساء نفس اليوم غادرت فيينا الى جالسباخ .

ولـكنى لما أويت تلك الليلة الى فـراشى أحسست أن فى قلبى مكانا صغيرا خاليا ... مكانا صغيرا كانت تشغله ماريا كريستين ! .

وبعد أسبوع عدت الى فيشى ...

وبعد أسبوعين عدت الى مصر ...

ولم يمر شهران حتى كنت نسيت تماما ماريا كريستين ! .

* * *

وفى أواخر شهر نوفمبر عام ١٩٣٨ غادرت مصر الى باريس .

وبين الأصدقاء الذين أحرص على زيارتهم كلما مررت بباريس الطبيبة الدكتورة ل ... وصديقتها الأستاذة ا ... المحامية . وقد عرفت الاثنتين من صديقة وزميلة لهما فى الدراسـة وهى متزوجة من أحـد وجهاء المصريين .

وزرتهما كعادتى ...

وذات يوم فى شهر ديسمبر وقد أزمعت مغادرة باريس بعد يومين الى سويسرة ، دعوتهما لتناول الغداء غدا فى مطعم « لاتور دراجان » .

وقالت الأستاذة ا ... ان عليها أن تحضر غداً فى سراى العدل تحقيقا ما بالنيابة عن الأستاذ بيكار . وكانت تعمل فى مكتبه . وانها لهذا السبب تعتذر اذ أنها لا تعرف متى ينتهى التحقيق ... الى آخره .

وتمسكنا نحن — ل ... وأنا — بحضورها معنا ... واقترحت الصديقة الطبيبة أن نمر فى منتصف الساعة الأولى بعـد الظهر بسراى العدل وهى فى طريقنا الى مطعم (لاتور دراجان) حتى اذا كانت ا ... قد انتهت من عملها صحبتنا الى المطعم والا لحقت بنا الى هناك ...

ووافقت الأستاذة المحامية وقالت : اذن فاسألا عنى فى غرفة رقم كذا عند قاضى التحقيق مسيو كذا ..

وفى الموعد المحدد فى اليوم التالى كنت أنا والصديقة الطبيبة أمام حجرة قاضى التحقيق المذكور وكان يجلس أمامها جنديان . .

وقالت السيدة الطبيبة لأحد الجنديين :

— هل تتكرم بابلاغ الأستاذة ! ... أن أصدقاءها ينتظرونها ...

وعاد الجندى بعد دقيقة يقول ان التحقيق أوشك أن ينتهى فهل تتفضل بالانتظار قليلا ؟ .

وسرت أنا ول ... فى الردهة الطويلة ... جيئة وذهابا فى انتظار ! . . . .

وبينما نحن كذلك فتح باب احدى الغرف وخرجت منه سيدة والى جانبها جندى .

وكانت السيدة ... ماريا كريستين ! وقد عرفتها فى الحال ...

ولما أصبحنا وجها لوجه وقفت ومدت الى يدها وقالت — بهدوء وكأنما مقابلتنا هذه أمر طبيعى ! — هل معك سيجارة ؟

وأشعلت لها سيجارة ...

ولم أجد ما أقوله لحظتها سوى . . . ما الخبر ؟

ما الخبر ! هذا هو كل ما استطعت أن أقوله بعد عام وبضعة شهور ! .

ونفثت ماريا كريستين دخان السيجارة ... وسكتت لحظة ... ثم قالت :

— لاشيء . . وكل شيء !

والتفتت الى الجندى وقالت : — هلم سيدى الحارس . .

وفى تلك اللحظة أقبلت علينا الأستاذة ! . . . تقول ضاحكة :

— ماذا ؟ هل تعرف الآنسة لاندو ؟

والتفتت الينا ماريا كريستين وقد همت هى وحارسها بالمسير ! وجالت عيناها فى وجوهنا ... وتدلت شفتها السفلى ...

ولأول مرة رأيت فى عينيها مايشبه الدموع !

* * *

وقلت للصديقة المحامية ونحن حول مائدة الغداء :

— ما حكايتها ؟

قالت : من ؟

قلت : الآنسة لاندو ؟ . . .

قالت : لصة الفنادق ؟ ان حكايتها فى صحف باريس . . .

قلت : ولكنى لا أهتم بقراءة أخبار الجرائم والبوليس . .

وابتسمت الصديقة وقالت :

— اذن لماذا تهتم بالسؤال عن حكاية الآنسة لاندو ؟

قلت : لأنى عرفتها فى فينا فى صيف ١٩٣٧

وصاحت الصديقتان معا : حقا ! كم هذا مثير !. قص علينا كيف !

وقصصت عليهما ما كنت سمعته من « البارمان » أوسكار . وأما ماكان بينى وبين ماريا كريستين فقد طويته فى صدرى !

وقالت ! . . . : — ان أنطون جالماشر كونت مزيف . . وكان يرأس

عصابة ترتاد السهرات والحفلات والأندية والفنادق الكبرى وتسرق ما تصل اليه أيديها وهو شاب وسيم بهى الطلعة أنيق الملبس حلو الحديث — ولعل هذه الصفات ضرورية لمن يحترف هذه المهنة — وقد تعرف بالآنسة لاندو فى احدى الحفلات وأوقعها فى حبه — أو هكذا تزعم هى فى التحقيق — ثم استغل اسمها وعلاقاتها الحسنة بأفراد الطبقة العليا فى مجتمعات فيينا وبودابست وبرلين . . وما زال بها حتى أصبحت عضوا فى عصابته . .

ومضت الفتاة من سيء الى أسوأ . وكانت — وهذا ما قالته أمام المحقق — كانت كلما أرادت أن تنجو بنفسها من هذه الحياة ضيق حولها الخناق وهددها بكشف أمرها . . ولكن هذا ما يقوله أمثالها دائما اذا ما وقعوا فى قبضة البوليس ووقفوا أمام قاضى التحقيق . . وقد وقعت أخيرا فى باريس . .

قلت : ولكنى أصدقها !

قالت : ماذا ! هل قصت عليك قصتها فى فيينا ؟ .

وسكت أنا قليلا قبل أن أجيب : — كلا ! وليتها فعلت !

وتذكرت خطابها . . .

(. . ولكنك لم تفعل لأنك لم ترد أن تؤمن بالمصادفة وأن المصادفة قد يكون من ورائها خير كثير . .) .

ولقد مضت أيام وشهور قبل أن أنسى هذا الخطاب . . . وأنسى وجه ماريا كريستين — والجندى الحارس ممسك بذراعها — وهى تلقى علينا نظرة أخيرة ... وقد تدلت شفتها ... وفى عينيها مايشبه الدموع . .



شارلوت

كان قلبها مملوءاً بالأزاهر ...

الليالى ! ياما أمرّ الليـــالى

غنيت وجهك الجميـل الحبيبا

يا حبيبى كان اللقاء غريبا

وافـترقنا فبات كل غريبا

(ابراهيم ناجى)

شـــارلوت

كانت حفلة الليلة تعتبر خاتمة حفلات موسم الأعياد — عيد الميـلاد ورأس السنة — وهى حفلة راقصة كبرى اعتاد الفندق أن يقيمها كل عام فى نهاية الأسبوع الأول من شهر يناير احتفالا — أو وداعا — لفريق نزلاء الفندق الذين يقضون فيه عطلة الأعياد ، يمارسون بالنهار رياضة التزحلق على الجليد ، وبالليل . . .

. . . أما فى الليل وعلى نغمات موسيقى « الجاز » أو موسيقى فرقة « الزيجان » المجرية ... وفى أركان قاعات الفندق الهادئة الأنوار ، فان كل ذكر وكل أنثى يحاول ألوانا من الغزل البرىء أو غير البرىء ! وقد ينتهى بشىء ... أو بلا شىء ! .

وكانت الليلة حفلة الوداع للذين قضوا بين الثلوج عطلة الأعياد . أسبوعين أو ثلاثة . وغدا أو بعـد غد يغادرون الفندق وسان موريتز عائدين الى بلادهم وأعمالهم . ولا يبقى فى الفندق الرابض عند سفح جبال تغطيها الثلوج سوى فريق هواة رياضـة الثلج الذين يمكثون فى الفندق عادة ما بين ستة وعشرة أسابيع .

وكانت القاعة تموج بالراقصين . موسيقى . . وشراب وأنوار وعطور وزهور . . وابتسامات دلال واغراء أو لفتات رأس فيها صد واعراض .

وفى الأركان هنا وهناك ، وقفت أزواج ، اثنان اثنان ، شاب وفتاة ،

وكانت الليلة صافية ، والقمر فى تمام البدر والأشجار على جانبى الطريق مثقلة بالثلوج حتى بدت كل شجرة فى ضوء القمر كأنها شمعدان من البلور تضيء فروعه وتشع نورا من غير نار .

ومشيت فى الطريق النازل الى سان موريتز . . . وللثلوج فى ليالى القمر روعة وجمال وجلال ، يكاد معها اللفظ يجمد على الشفاه . . . اقرارا بالعجز عن الاحاطة والوصف ! .

حقول من الثلج ناصعة البياض ! وجبال من الثلج ناصعة البياض ! واحساس جارف بأنك الآن أقرب ما تكون الى الخالق الخالد الجبار ! .

ووصلت الى المقبرة ، مقبرة سان موريتز وهى على مسافة بضع مئات من الأمتار من الفندق . . . قبور يحيط بها سور من قضبان الخشب وتحرسها أشجار مثقلة بالثلوج ! .

قبور ترقد تحت أطباق من الثلوج ! أو جليد يرقد من تحت جليد ! .

ووقفت لحظة قبل أن أعود الى الفندق . . .

وفى نور القمر — ونوره خداع — خيل الى أن شبحا نهض واقفا من أمام أحد القبور . . .

واستدارت الفتاة — كان الشبح فتاة — وعرفتها فقد كانت تقيم فى نفس الفندق منذ بضعة أيام . . .

وأقبلت نحو باب المقبرة تريد الخروج وقد التفت فى معطف طويل.

وكنت أحنيت رأسى أشعل سيجارة . . وقلت لها :

— مساء الخير . . . هل تدخنين ؟ .

ربما كان كل منهما يجهل وجود صاحبه منذ أسبوعين اثنين ، ولكنهما الليلة يقفان وفى العيون لهفة ، وعلى الشفاه ابتسامة ترتجف ، وفى القلب شيء ما ! هو مزيج من الأسف والحنين . . . والأمل فى لقاء قريب . . . ربما ! من يدرى ؟ ! .

وقفا يودع كل منهما صاحبه ، ويعطيه عنوانه . وقد يكون « هو » من الشرق — ألمانيـا أو بولندة — وقد تكون « هى » من الغـرب — فرنسا أو اسبانيا . أو من الشمال — الدانمارك أو النرويج . . . وفى سان موريتز تلتقى أمم الأرض وأجناس الشعوب فى موسم الشتاء .

وبين زمرة الراقصات والراقصين حسناء ، تخطف المنديل الحريرى البارز من جيب سترة أحد الراقصين وتطبع عليه شفتيها . . . وتعيده اليه مختوما « بالأحمر » على سبيل الذكرى والتذكار ! ! أو ترميه بوردة كانت تمسك بها بين شفتيها ، نكاية فى الذى يراقصها لعله يحس ويغار ! .

كل ما تتقنه « حواء » من ضروب ترويض الرجال ! من اقبال واعراض واغراء ودلال ! .

الليلة خمر ورقص ومتاع ! . . وغدا ؟ . . غدا فرقة ووداع ! .

وخرجت من قاعة الرقص فلم يكن لى فيها سوى « ذكرى قديمة » من الذكريات . . وكانت « الذكرى » القديمة قد قامت تراقص رجلا . . .

وتركت قاعة الرقص . . . ومررت بغرفة بواب الفندق وتناولت طاقية الصوف فحشرت فيها رأسى ووضعت فوق حذاء بدلة السهرة حذاء الثلج « الكاليش » وخرجت من الفندق أتمشى فى الطريق المفروش بالجليد . . .

ولم تجفل الفتاة من رؤيتي . . . ومدت يدها وتناولت سيجارة من صندوق السجاير الذى قدمته لها ...

ومشينا نحو دقيقة فى طريقنا الى الفندق دون أن يقول أحدنا شيئا .

وأخيرا قالت هي دون أن تلتفت الى :

— هل من عادتك أن تزور المقبرة فى الليل ؟ .

قلت : كلا . وأنت ؟ .

قالت بصوت عادى : كنت أزور صديقا ! . . .

ثم قالت : هل مضى عليك وقت طويل وأنت واقف أمام المقبرة ؟ .

قلت لها : أقل من دقيقة . . . ولكن اذا كنت تريدين من سؤالك أن تعرفى ماذا رأيت فقد رأيتك وأنت تنهضين من أمام . . . الصديق الذى كنت تزورينه ! ! .

ولم تقل هى شيئا ... الى أن وصلنا الى الفندق . وقلت لها ونحن نخلع أحذية الثلج وطاقية الصوف ونودعها غرفة البواب :

— هل تتناولين معى شرابا ساخنا ؟ .

قالت : نعم وشكرا ، فأنا فى حاجة اليه .

واخترنا ركنا فى القاعة الكبرى وجلسنا فى مقعدين كبيرين وتركنا حرارة الدفء تسرى فى مفاصلنا قبل أن تتكلم ...

* * *

اسمها شارلوت وهى نرويجية من «برجن» ... فارعة العود . متينة البناء . شقراء . عينان واسعتان كعيون بقر الوحش . . بقر الوحش

الحزين ! ولون العينين أزرق وأسمر . وأنف مستقيم من تحته فم ممتلىء الشفتين .

فى مشيتها وحركاتها سهولة ويسر . وفى لفتات رأسها ونظرات عينيها صراحة وبساطة . . . فتاة من فتيات الجبال . ولو كان للصحة رائحة وعطر ... لامتلأت القاعة التى تدخلها شارلوت رائحة وعطرا ! .

كان لها صديق طفولة وصبا . وأصبح خطيبها . . وكان مهندسا ناجحا . وزار سان موريتز منذ أربعة أعوام ليشترك فى سباق دولى. ولكن «زحافته» حادت عن الطريق المرسوم — وكانت تنزلق لحظتها بسرعة نحو ١٠٠ كيلو متر فى الساعة — واصطدمت بشجرة . . . وتهشم رأسه ودفن فى سان موريتز . . .

وهى تقيم منذ عام فى باريس تدرس اللغة الفرنسية وعلم تربية الأطفال فوق اللغتين الألمانية والانجليزية وقد درستهما فى مدرسة برجن . . . وتطمع فى أن تجد وظيفة مربية أطفال عند احدى الأسرات الغنية فى النرويج.

وكانت تقتصد — منذ قتل خطيبها — من المال القليل الذى يرسله أهلها اليها لكى تأتى الى سان موريتز وتزور قبر هارولد خطيبها . . .

تزوره ليلا حتى لا تراها عيون الفضول ! .

ثم قالت وفى يدها القدح الكبير المملوء « بالروم » والماء الساخن والسكر والليمون ... قالت :

— ولا أدرى لماذا أقص عليك هذا كله . . . ربما لأنك غريب . . من الشرق البعيد ... وأجنبى ... نحن هنا اليوم وغدا نفترق ! وأنت

لا تعرفنى وأنا لا أعرفك ... اذن فنحن الاثنان فى مأمن من هذر اللسان (وبعد لحظة سكوت) .. أو ربما لأننا نحس من وقت لآخر أنه يحسن بنا أن نفتح صمامات القلب ولو قليلا وننفس عن المكنون ! .

وأفرغت ما بقى فى القدح . . فى جرعة واحدة ووقفت . . . وهى تقول : مساء الخير ! لقد سهرت الليلة أكثر من عادتى ...

ووقفت أنا أيضا وقلت : — وصباحك كيف تمضينه ؟ .

قالت : لا شىء على وجه التحديد ... مساء الخير ! .

* * *

وفى الصباح جلست فى «الهول» وعيناى على باب «المصعد» حتى رأيتها خارجة منه فوقفت ... وتقدمت نحوها ...

وقالت وهى تمد يدها تصافحنى : — هل كنت تنتظرنى ؟ .

قالتها بصراحة وبساطة ...

قلت : نعم ...

قالت : لماذا ؟ .

قلت : لكى أدعوك الى نزهة ما ...

قالت : لماذا ؟ .

قلت : ولم لا ؟ اننى مثلك لا برنامج ليومى على وجه التحديد فلماذا لا أمضى صباحى معك كما أمضيه مع أى شخص آخر ! .

قالت وهى تبتسم لأول مرة :

— هذا صحيح . ولكل جديد طلاوة . وأنا الجديد ؟ .

وابتسمت أنا وقلت : ربما ..

وذهبنا يومها الى قرية سلس ماريا ثم تناولنا الغداء فى مالويا كولم .. ولما عدنا الى سان موريتز تناولنا الشاى معا ...

وكان حديثنا عن مصر والشرق الذى تجهله هى .... وباريس التى نعرفها نحن الاثنان . وعن خلجان « فيورد » النرويج وغاباتها وبحيراتها الصغيرة التى يستأجرها المصطافون فى شهرى يوليو وأغسطس .

ومرت أربعة أيام ونحن نخرج معا كل يوم الى نزهة فى مكان مختلف ...

وفى اليوم الخامس ذهبت أودع شارلوت فى محطة سان موريتز وقلت لها اننى سأذهب الى باريس فى أواخر شهر فبراير فهل تسمح لى أن أراها ؟ .

وأعطتنى رقم تليفون الدار التى تقيم فيها فى حى « أوتى » وهى دار أو بنسيون للطالبات النرويجيات .

* * *

ومرت أيام ... ثم جاءنى خطاب من صديقى مصطفى أمين يقول انه عائد من أمريكا الى مصر بالباخرة ركس وسوف تمر الباخرة بميناء فيلفرانش (فى جنوب فرنسا) فهل أراه قبل عودته الى مصر ؟ .

وأرسلت اليه تلغرافا أدعوه فيه لزيارة باريس ثم الذهاب معى الى سان موريتز قبل أن نعود معا الى مصر .

وهكذا قدمت موعد سفرى الى باريس !

ولم أكن أنتظر وصول مصطفى الى باريس قبل ثلاثة أسابيع أو أكثر..
فلماذا عجلت سفرى الى باريس ؟.

* * *

ووصلت باريس ذات صباح فى النصف الأول من شهر فبراير ١٩٣٨

وكلمت شارلوت بالتليفون ودعوتها لتناول الغداء معى « غدا »
فى الفندق الذى أقيم فيه .

وفى مساء اليوم ـ أول يوم لى فى باريس ـ أحسست بالحمى نتيجة
أكلة سمك ومحار . وارتفعت درجة حرارتى أثناء الليل .. ولما أقبل
الصباح كنت فى حالة هذيان . ولكننى لم استدع الطبيب ... لأننى كنت
حريصا على موعد شارلوت ! .

وحانت ساعة الموعد . وقمت من الفراش وارتديت ملابسى ونزلت
أجر ساقى الى قاعة الفندق وعينى على باب الدخول ... حتى أقبلت !

ومشينا الى « البار » لنتناول « الأبرتيف » ...

ولكن حالتى لم تخف عليها . فقد أمسكت فجأة بيدى وقالت :
ولكنك محموم ! ! .

ثم قالت : أنت مجنون ! كيف تترك الفراش .. ان عينيك ... قم ..
قم معى ! .

وأطعتها وقمت .. وقادتنى الى « المصعد » وهى تسألنى :

ـ غرفتك فى أى دور ! ..

وصعدت بى الى غرفتى فى الفندق ... وأدخلتنى الفراش . وتكلمت
بالتليفون مع ادارة الفندق تطلب طبيبا ...

وكنت أفيق أحيانا من هذيان الحمى ... وأنا أسمع صوتا يتكلم هو صوتى ... وأحس يدها على جبينى أو رأسى بمكمدات الماء المثلج ... أو أحس وهى تسندنى وتناولنى الدواء .

كانت تحضر فى الثامنة صباحا وتتناول طعام الغداء فى غرفة الجلوس المجاورة لغرفة نومى . ولا تتركنى الا فى المساء ، لعناية الممرضة ...

وجاءت ذات يوم صديقة فرنسية تزورنى ومعها زوجها ... وكانت شارلوت فى مقعدها المعتاد بجوار الفراش ...

وقالت الصديقة الفرنسية همسا فى أذنى وهى تشد على يدى : انت تعرف دائما كيف تختارهن ! . . .

وابتسمت أنا بضعف وهززت رأسى ونظرت اليها نظرة حاولت ان أقول فيها أن لاشىء هناك مما تظن انه بينى وبين شارلوت ! .

ومرة أخرى قالت وكانت شارلوت فى غرفة الجلوس : لماذا لا تستقر أيها القلق ؟ لماذا لا تتزوج . . هذه الفتاة مثلا ! انها تحبك ! .

وهززت أنا رأسى ! .

ولكنها سخرت منى وقالت :

— فتاة غريبة عنك تقضى أيامها الى جانب فراشك تمرضك ! لمــاذا أيها الســيد ؟ .

قلت : هى الشفقة ! وشارلوت فتاة طيبة القلب ! .

وهبطت حرارة الحمى ودخلت دور النقاهة . واقبلت شارلوت ذات صباح وفى ذراعها سلة صغيرة يرقد فيها عنقود كبير من العنب ...

عنب فى فصل الشتاء وفى باريس ! . . . لابد أنها دفعت فيه «مصروفها» عن يوم كامل ! فقد كان مرتبها الشهرى من أسرتها ألفى فرنك أو ما يساوى ١٢ جنيها فى تلك الأيام .

وقالت : هديتى اليك أيها السيد المريض . . .

وجلست تضع فى فمى حبات العنب . . . ومن وقت لآخر تتناول هى حبة وتضحك وتقول : — هل تسمح ؟

وفى تلك الجلسات عرف كل منا عن صاحبه الشىء الكثير . . . عن حياته وأهله واخوته وأخواته . عمله وآماله وآمانيه ...

وذات صباح . . انقضى الصباح ولم تحضر شارلوت . . وانتصف اليوم ولم تحضر شارلوت . وتناولت التليفون الموضوع الى جانب الفراش وسألت عنها فى « البنسيون » فقيل لى انها خرجت فى الصباح على عادتها ولم تعد بعد . . .

وطافت برأسى ألوان وألوان من الشك والقلق والجزع ! .

وأدركت لحظتها أن شارلوت أصبحت «شيئا» فى حياتى لاغنى لى عنه ! .

وقلت لنفسى — وأنا أحاول أن أحلل عواطفى — قلت :

— هو المرض ! والضعف الذى خلقه المرض ! أو لعله الأثر الذى تتركه كل ممرضة رحيمة فى نفس كل مريض يعترف بالجميل . . . أو . . . أو لعله أثر صحبتها الطويلة حتى اعتدت عليها . . أو . .

ولكنى كنت أحس أنى أغالط نفسى وأخدعها عن الحقيقة ! .

ولكن . . ما هى الحقيقة ! . . هل أنا أحبها ؟

هل أنا مثلا مستعد لأن أهجر مصر من أجلها ؟ وأعيش معها فى الترويج اذا هى طلبت منى ذلك ؟ .

« كلا » ... وقلتها لنفسى بلهجة التأكيد ! .

ولكن لماذا هذا الخاطر أو هذا الاحتمال يطوف برأسى ... ما الذى جعلنى أسأل نفسى ما اذا كنت مستعدا لأن أترك مصر وأعيش معها فى بلدها ؟ .

هل لأننى بدأت أفكر فى احتمال الزواج منها ؟ .

طبعا ... لا .. اذن لم كان هذا السؤال ؟ .

هل هو الادراك الباطن ... أو العقل الخفى ... أو ...

وأحسست بالتعب . وغفوت ! ولا أدرى كم طال نومى ! ولكنه على كل حال لم يزد على ساعة ... وأحسست بيدها على جبهتى ففتحت عينى ...

وكانت واقفة الى جانب الفراش تبتسم فى وجهى بينما كان خادم الفندق يعد غدائى البسيط على مائدة صغيرة الى جانب الفراش ...

وقلت لها من غير ادراك : أين كنت ؟ .

ولعل لهجتى كان فيها شىء من التبرم أو « الأمر » شأن من له حق فى هذا السؤال ! لأنها قطبت حاجبيها أولا وبدت دهشة خفيفة فى عينيها ولكنها ابتسمت وقالت :

— الهى ... ما هذه اللهجة ! .

وسكت أنا لحظة ثم قلت : معذرة ! .

وانتهى الخادم من اعداد المائدة والسحب . وقالت وهى تضع وسادة وراء ظهرى وتسندنى بذراعهـا ... وتسـاعدنى فى رقة ولطف على تناول الطعام ...

قالت : هل السيد حاكم بأمره ؟! .

قالتها وضحكت ثم :...

ــ لأنك سألتنى « أين كنت » بلهجة الآمر الناهى !

وقلدت صوتى ولهجتى وضحكنا معا ...

وقلت لها : كلا . ولكننى ...

وسكت ... وقالت هى :

ــ اننى أفهم ! لقد اعتدت علي ! أليس كذلك ؟ .

وأحسست أنا أننى أوشك أن أتورط فى حـديث لم أكن مستعدا له فقلت :

ــ ولكنك لم تقولى أين كنت ... هل هذه اللهجة تعجبك ؟ .

قالت : انك تنسى اننى طالبة واننى أيها السيد قد انقطعت عن المدرسة بسبب مرضك نحو أسبوعين ...

قلت لها وعيناى فى عينيها :

ــ كيف أنسى !.. وكيف أشكرك ؟ . ·

وظلت عيناها فى عينى برهة قصيرة ! عيناها الواسعتان اللتان تختلط فيهما زرقة وسمرة ... ثم خفضتهما وقالت :

ــ ذهبت اليوم الى المدرسة . وبعد ، فانت قد شفيت . وبعد أيام

تكون قد استرددت قواكِ وتغادر الفراش ... لم تعد فى حاجة الى ! .

وسكت أنا وأحسست مرة ثانية أننى أوشك أن أتورط فى حديث لم أكن مستعدا له لأننى لم أكن قد فهمت تماما أو حللت تماما شعورى أو عواطفى نحوها ...

ولكن كان ولابد لى من أن أقولِ شيئا بعد أن قالت اننى لم أعد فى حاجة اليها ...

وقبل أن أجد عبارة مناسبة قالت هى :

— على كل حال ... هل تدرى اننى سأغادر باريس بعد أسبوع ؟ .

سألتها : الى أين ... ولماذا ؟ .

وكانت فى صوتى لهفة لم أحاول أن أخفيها ! .

قالت : سوف أسافر الى « بريتانى » وأقيم فى احدى قراها مع أسرة زميلة صديقة لى وأمضى هناك شهور الربيع قبل أن أعود الى بلدى فى الصيف وسوف تساعدنى الاقامة مع هذه الأسرة الفرنسية على زيادة اتقان اللغة الفرنسية لأننى هنا فى باريس أقيم كما تعرف فى دار نرويجية مع فتيات نرويجيات وحديثنا طبعا باللغة النرويجية ...

وأمسكت بيدها وقلت :

— عدينى بأن أراك كل يوم طول هذا الأسبوع ؟ ! .

وربتت بيدها على يدى وهى تقول :

— أعدك ... ولكن فى المساء فقط . لأننى سأذهب كل صباح الى المدرسة ...

وبعد يومين غادرت الفراش . وفى اليوم الثالث ذهبت ومعى شارلوت الى محطة ب. ل. م. لأستقبل مصطفى أمين ...

وكان مصطفى يشكو زكاما وسعالا قال انه أخذهما « عدوى » من ابن موسولينى الذى عاد معه من أمريكا على ظهر نفس الباخرة ...

أما حكاية « العدوى » فصحيحة ولكنها لم تنتقل اليه من ابن موسولينى ! ولكن هذا حديث آخر ! .

وتناولنا ليلتها نحن الثلاثة طعام العشاء فى مطعم « لابل أورور » بالقرب من ميدان الأوبرا ...

واقترحت أن نذهب الى أحد مسارح مونمارتر ولكن مصطفى — وكان تناول قدحين من النبيذ — قال انه يخشى من اشتداد العلة . فأوصلناه الى مسكنه وكنت حجزت له غرفة فى شارع قريب .

وهناك استودعناه فراشه هو وزكامه وسعاله ! .

* * *

وهكذا ... كنت ألقاها كل مساء ونذهب نتناول عشاءنا فى مطعم مختلف ثم نمضى السهرة فى مسرح أو صالة من صالات الموسيقى والاستعراض وما أكثرها فى باريس .

وكانت شرلوت فرحة مسرورة كالطفلة الصغيرة فهى لم تكن فى الحقيقة تعرف باريس ولم يكن مرتبها الضئيل الذى يجيئها من أهلها ليسمح لها بغشيان المطاعم أو المسارح .

كل شىء تراه كان جديدا عليها .

فاذا انتهت السهرة ... نزلنا من مونمارتر مثلا سيرا على الأقــدام مخترقين «البولفار» الى شارع رويال الى ميدان الكونكورد والشانزلزيه..
وقــد تمطر السماء رذاذا ... فأضع معطفى فوق أكتافنا نحن الاثنين وتلتصق هى بى ! وذراعها فى ذراعى ؛ وعشى نضحك حتى نجد «تاكسى» فأوصلها الى مسكنها فى « أوتى » وأعود الى الفندق ...

وانقضى الأسبوع ... وحل آخر يوم وآخر ليلة لها فى باريس .

وجاءت شارلوت فى المساء وكانت السماء تمطر مطرا ثقيلا ... وكان الجو باردا مشبعا بالرطوبة وهذا شأن جو باريس فى مستهل الربيع فقد كنا فى النصف الأول من شهر مارس ...

وألقت هى بمعطفها على مقعد أمام الموقدة لكى يجف ...

وقلت لها : ما رأيك لو تناولنا العشاء وقضينا السهرة هنا ... ان المطر ...

وقالت قبل أن أتم كلامى :

— ولم الشرح والتفصيل ! هذه آخر ليلة فلماذا لا نقضيها معــا هنا نتحدث ! ..

وكانت واقفة تدفىء يديها أمام الموقدة وظهرها الى فلم أر وجهها ...

* * *

وكنا فى غرفة الجلوس الخاصة « الصالون » الملحقة بغرفة النوم ... وقد جلست شارلوت فوق « كنبة » واسعة وجمعت ساقيها تحتها وأحاطت نفسها بوسائد صغيرة وجلست أنا فى مقعد أمامها ...

وكنا نتحدث ثم نسكت ... وتمر الدقائق دون أن ينطق أحـدنا بكلمة ... ثم يقطع أحدنا هذا السكون والصمت بعبارة أو بسؤال ! ولو من غير مناسبة وانما شيء يقوله والسلام !

وتناولنا عشاءنا حيث كنا ...

وأقبل الخادم بأقداح القهوة وقال وهو ينسحب :

— هل من حاجة أخرى ؟ .

قلت : كلا ...

قال : أسعدتم مساء ...

* * *

ونهضت شارلوت واقتربت من النافذة وأزاحت بيـدها السجف وراحت تحدق فى ظلام الشارع ، ثم قالت :

— لا تزال تمطر ... هل تظن أننا نجد « تاكسى » الآن ؟ .

وقبل أن أجيب أو أسـألها لماذا ... التفتت الى وقالت وعيناها على نار الموقدة :

— قل لى ... لولا هذا المطر ... هل كنت تدعونى لقضاء السهرة معك ... هنا وحدنا ؟ .

قلت : لا أدرى ! .. منذ الصباح ... منذ أدركت أن هذا آخر يوم أراك فيه وأنا أحس كأننى أسبح فى الفضاء ... أو كأننى تائه أبحث عن شيء لا أعرف ما هو ! .

وكأنما لم تسمعنى لأنها قالت :

— ترى ماذا كان يقول هارولد لو رآنى معك فى هذه الخلوة ! .

وسكت أنا ... ماذا أقول ! .

ثم ناولتها قدح القهوة . وذهبت هى وجلست على وسادة وضعتها على الأرض أمام الموقدة ... ترشف القهوة فى سكون وقد انعكس على وجهها نور اللهب الأحمر ...

وأغمضت عينيها ! عينى بقر الوحش الحزين ثم قالت بصوت خافت : تعال هنا ...

واقتربت منها ...

— اجلس هنا ... اقترب أيضا ! .

وأراحت رأسها على كتفى وقالت وهى لا تزال مغمضة العينين :

— كم أنا متعبة ...

ومررت بيدى على شعر رأسها ...

وفتحت عينيها وقالت :

— أحيانا ... ولغير ما سبب مفهوم ... تجتاحنا تيارات من عواطف متناقضة فتهزنا حتى الأعماق ... ونحس بحاجة طاغية الى صدر نحتمى به أو كتف نلقى رأسنا عليها ونستريح ... هكذا ! .. هكذا ! ..

قالتها وهى تتنهد ! .

وبعد لحظة سكون كانت تحدق خلالها فى قطع الخشب الملتهبة فى الموقدة قالت : هل تؤمن بالكبرياء ؟ .

قلت وأنا أمسح بيدى على رأسها وأسلل أصابعى بين خصلات شعرها :

— نعم . كما أومن بالدموع ! .

قالت : هذا صحيح ! الكبرياء والدموع ! .. كل ذخيرة بعضنا فى الحياة هى الكبرياء والدموع ! النقيضان ! الأولى تسندنا وتشد ظهرنا ! والثانية تواسينا وتنفس عنا ! ..

قلت لها : ابكى ! بك حاجة للبكاء ... ابكى ! استرخى ولا تشدى أعصابك ... ابكى اذا كان الدمع يفرج عنك ! .

ورفعت شارلوت رأسها واعتدلت وقالت وفى عينيها دمع حائر :

— كلا ! هذه الليلة ... لا كبرياء ... ولا دموع ! ..

... ...
.. ..

وأخيرا فتحت عينيها وقالت :

— كم الساعة الآن ؟ .

قلت : الثالثة والربع ...

— اذن فقد نمت ساعتين ... لقـد كنت متعبة ... قل لى ... هل أنت نادم ؟ .

وبدت دهشتى فى صوتى وأنا أقول :

— أنا ؟ .. كان فى خاطرى أن أسألك انت هـذا السؤال ... هل انت نادمة ؟ .

وأجابت بصوت عادى هادىء :

— نادمة ؟ .. كلا ... ولكن انت ! ربما أضفت الى ذكرياتك ذكرى

لم تكن تطلبها !! .. وقد تثقل عليك ! وقد تعذبك فى الغد ... بعد أن تفترق ! .. أتدرى لماذا أقول لك هذا ؟ ..

وأضاء وجهها لحظة بابتسامة كلها طيبة وحنو :

— أتذكر — وأنت مريض — يوم تأخرت عن الحضور طول الصباح ؟ ولما دخلت غرفتك وجدتك نائما ؟ ووقفت لحظة أمام فراشك ؟ .. أتذكر ؟ .. لقد سمعت اسمى يتردد بين شفتيك ... « شارلوت » ! لحظتها شىء مافى أعماق نفسى انساب نحوك ! .. كنت وحيدة ... ولن تعرف أنت كم هى ثقيلة تلك الوحدة على فتاة تعيش وقلبها مملوء بالأنقاض والرماد ... وها أنت تهمس باسمى فى أحلامك ...

وبينما أنا أنحنى فوقك لأقبلك دخل الخادم يحمل طعام غدائك فأمسكت ... لقد أدركت يومها أنك تحبنى ! .. ومن هنا كان سؤالى الآن . هل أنت نادم ؟ لقد حملتك الليلة ذكرى ما كان أغناك عنها ...

وقلت وأنا أحول نظرى عنها :

— ربما كان ضعفا منى ...

قالت وهى تبتسم فى وجهى :

— أنت تكذب ... وتعرف أنك تكذب ! لم يكن هناك ضعف منك ولا ضعف منى ! كلانا كان مفتوح العينين وسيد نفسه تماما ! وكلانا أراد ما كان ! وما جرى كان أقوى منك ومنى فلماذا نشوهه ! ولماذا نحاول أن نتلمس الأعذار والمخرج السهل ونتهم الضعف ؟ ! .

سألتها : كم سنك ؟ .

قالت : اثنان وعشرون فى أكتوبر القادم ...

قلت : اننى أكبرك بكثير . هل كنت ترضين بى زوجا لو كنت أقربك فى السن؟ .

قالت : كلا ! .

قلت : لماذا ؟ .

قالت : لأن الذى بيننا لا يصلح لأن يكون أساسا لزواج سعيد ! ثم ماذا بيننا ! .. كلانا عابر سبيل ... التقينا فى طريق وسرنا معا ... وغدا ... بل الساعة نصل الى مفترق الطرق ونفترق ... وبعد من أنا ! .. ومن أنت ! كلانا يجهل صاحبه ! ثم لا تنس ان قلبى مازال مملوءا بالرماد ! وهل تستطيع أن تشعل نارا جديدة من فوق رماد ؟ .

وشىء ما آلمنى أو غاظنى ! أو لعلها كبرياء الرجل ! فقلت : الذن ... ماذا تسمين هذه الليلة ؟ .

وبدا الألم فى عينيها وهى تقول :

— هذا عتاب كان يسعدنى لو سموت عنه ! .. (وبعد لحظة) ... فليكن لك ما تريد ! أصبت ! .. كان ضعفا منى ! .. هل أنت مرتاح الآن أيها السيد ... الرجل ! ..

ولكننى لم أرحمها ... وعدت أقول :

— وقلبك المملوء بالرماد ... رماد حبك القديم ...

ولكنها قاطعتنى وهى تقول :

— لم أقل أنه قديم ! .. ولكن لماذا نشوه هـذه الساعة وتتقاذف بالتهم ؟ .. اننا نوشك أن نفترق ! ..

قلت : كنت أحب أن أحمل معى ذكرى حب ... ولو كان حب ليلة واحدة ! ! ولكننى أفهم من كلامك أن ما جرى كان رحمة منك أو صرخة من صرخات الجسد ! ! .

وأحنت رأسها وقالت : كما تشاء ! ..

وجمعت حوائجها الصغيرة المبعثرة وتناولت معطفها ومدت يدها تقول :

— ان قطارى يقوم فى تمام الساعة الثامنة . وعلى أن أذهب الى مسكنى وآخذ حقائبى ... قل لى كلمة طيبة قبل الرحيل ! ! .

وأحسست ان شيئا يملأ حلقى حتى استعصى على النطق ! وأدرت وجهى حتى لا ترى عينى ...

وتقدمت هى ووضعت يديها على كتفى وقالت وهى تبتسم : لا تقل لى أن هذه أول « ذكرى » فى حياتك ؟ ! .

قلت : طبعا ... لا ! .

قالت : اذن لماذا تخصنى أنا وحدى بهذه المعاملة ! .

قلت : لأننى ...

وترددت قليلا ثم أكملت :

— أخشى أن أقول لنفسى اننى أحبك ! .

قالت : هذا أظرف ما سمعته الليلة منك ...

ومدت سبابتها فى أذنى تداعبنى ... ثم أمسكت بخصلة من الشعر الى يمين رأسى . خصلة غلب فيها البياض وقالت :

— ترى كم خصلة بيضاء كهذه سوف أراها فى رأسك يوم ألقاك ! ؟ .

وسألتها : ومتى ألقاك ؟ .

قالت : سوف أكتب لك وتكتب لى ... وسوف يبحث كلانا عن (قصه) ! .. والآن أسعدت صباحا ...

ونظرت الى عيون بقر الوحش الحزين ثم قالت :

– والله يباركك ويحميك ! .

وأدرت وجهى حتى لا ترى عينى وأنا أقول :

– هل أصحبك الى دارك ؟ .

قالت : كلا ... أفضل أن انصرف وحدى ...

* * *

وعدت الى مصر فى ابريل ١٩٣٨ وكتبت اليها على عنوانها فى برجن وجاءنى الرد .

وتبادلنا الرسائل بقية العام .

وهنأتها بعيد الميلاد ثم بالسنة الجديدة ١٩٣٩ .

وجاءنى الرد . ثم انقطعت رسائلها ! ! .

وفى يوليه ١٩٣٩ كنت فى أوروبا وكتبت اليها من باريس أقول اننى أريد أن أزور النرويج فهل أستطيع مقابلتها فى أوسلو أو لعلها تفضل أن أزورها فى برجن ؟ .

وجاءتنى منها برقية تقول : «أفضل أن لا تحضر» ! ! .

* * *

ثم قامت الحرب ... وعدت الى مصر ...

وفى شتاء ١٩٤٤ كنت فى احدى دور السينما فى القاهرة . وكان بين البرنامج شريط قصير عن «قوات المقاومة فى النرويج» .

وظهر فى الشريط طابور من جنود النرويج الذين استطاعوا الهرب من حكم النازى الى انجلترا ... ظهروا على رصيف محطة ما فى جهة ما فى انجلترا . وأقبل القطار وأخذ الجند وضباطهم يستقلون القطار .

وأقبلت فتاة ترتدى ملابس المجندات وكانت بين المودعين .. وتقدمت من ضابط نرويجى شاب ... ومدت سبابتها فى أذنه تداعبه ! ! ثم قبلته فى فمه ! .

وتحرك القطار . والفتاة المجندة واقفة تلوح بمنديل فى يدها للضابط الشـــاب .

وكانت الفتاة شارلوت ...

هل هو زوجها ! ... هل هو خطيبها ! ... ولكن ماذا يهم الآن ! ! .

وهكذا « التقينا » بعد ست سنوات ... هى على الشاشة ... وأنا بين المتفرجين !! .

ما أعجب القدر ! ... أى خيال مهما اتسعت آفاقه كان يقدر هذا الختـــام ؟ .

وغادرت دار السينما وصوتها يرن فى أذنى ... صوتها ذات ليلة فى باريس ... فى شهر مارس ١٩٣٨ صوتها وهى تقول :

ثم لا تنس أن قلبي مازال مملوءا بالرماد . وهل تستطيع أن تشعل نارا جديدة من فوق رماد ؟ .

وها هى ذى قد وجدت الذى استطاع أن يشعل النار الجديدة من فوق الرماد ! .

أما أنا ؟ ! .

... أنا من هؤلاء الذين كل ذخيرتهم فى الحياة ... الكبرياء والدموع ! ! .

قلتها لنفسى وأنا أفتح باب مسكنى الخالى وأتحسس طريقى فى الظلام ! .



مدموازيل س....

الفتاة التي كنت نسيت وجهها واسمها...

خلِّ الملامَ فليس يثنيها

حب الخداع طبيعة فيها

هو سترها وطلاء زينتها

ورياضة للنفس تحييها

(أعاصير مغرب ـ عباس محمود العقاد)

مدموازيل س ....

فى مساء ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ دق جرس تليفونى الخاص فى مكتبى بجريدة المصرى . . وكانت « المصرى » — لأصحابها محمود أبو الفتح وكريم ثابت ومحمد التابعى — قد صدرت منذ بضعة أسابيع .

وكان المتكلم صديقا لى يدعونى لقضاء سهرة الليلة فى داره.. سهرة رأس السنة . واعتذرت وأسفت وقلت اننى لا أستطيع أن أغادر مكتبى قبل الساعة الثانية صباحا . وكنت مرهقا حقيقة فى تلك الأيام بكثرة العمل المضنى .. بين المصرى وآخر ساعة ، هذا وبالرغم مما كان يذيعه «الطابور الخامس» رئاسة مصطفى أمين ، عن كسلى المزعوم ! .

وألح صديقى على بالحضور وقال :

— وقد وعدتنا «س» بحضور السهرة ...

قلت : ان «س» فى أوربا ؟ .

أجاب : لقد عادت منذ أسبوع ..

سألته : وهل أنت متأكد أنها ستحضر سهرتك الليلة ؟ .

قال : تقريبا ! لقد قالت لزوجتى انها مدعوة لحفلات فى مينا هوس وفى شبرد وعند الكونت نوس بك ولكنها سوف تعتذر عن عدم تلبية هذه الدعوات وتحضر إلى حفلتنا .

قلت : اذن سأحضر ! .

قال صديقى بضحكة خفيفة :

— وسوف أجلسك بجوارها حول المائدة ! .

* * *

وكانت « س » هذه — وأمسك عن ذكر أسمها وجنسيتها لأنها لاتزال تزور مصر من وقت لآخر — فتاة أجنبية من أسرة طيبة كانت تستوطن مصر وقد توفى أبواها وورثت عنهما ثروة لا بأس بها وكانت تمضى أيامها بين باريس والريفييرا ولندن وسويسرا ومصر .

وكنت قابلتها لأول مرة منذ عام أو نحو ذلك فى احدى قاعات المعرض الزراعى الصناعى الذى أقيم بالجزيرة . وقدمتنى اليها صديقة لى ولها .. ولكنى لم أحفل بها ... بل ونسيت وجهها ... ولما تقابلنا — هى وأنا — بعد ذلك ببضعة شهور فى حفلة ما بدار أحد الأصدقاء كنت نسيت تماما اسمها وكل شىء عنها بل ونسيت اننا سبق أن تقابلنا .

وقالت هى (بينما كان صاحب الحفلة يقدمنى اليها) :

— أظن أننا تقابلنا قبل اليوم ؟ .

وقلت أنا بأدب : يكون هذا من حسن حظى ... ولكنى لا أذكر !

وابتسمت « س » بأدب ثم شغلت عنى بالحديث مع الآخرين .

قلت انى لم أحفل بها فى أول الأمر ، ذلك لأن جمال « س » — وقد لا يكون لفظ « جمال » أكثر الألفاظ توفيقا فى أداء المعنى الذى أقصده — ليس من النوع الذى يبهر أو يلفت النظر لأول وهلة أو نظرة .. بل هو

من ذلك اللون من الجمال الذى ينسكب فى النفس قطرة .. قطرة حتى تمتلىء وتفيض به وهى لا تشعر .. أو هو يتسلل الى أعماقها فى حذر وعلى مهل .. فلا تشعر الا وقد استقر فيها وتمكن ! .

لم أحس فى يوم معين بالذات اننى أريدها ! . ولكننى أحسست ذات يوم — وكنت لم أرها منذ أسبوعين — ان شيئا ما ينقصنى وأن هذا الشىء هو « س » ... وان « س » كانت هنا ... معى ... فى خاطرى ودون أن أعرف ! .

* * *

وذهبت الى سهرة رأس السنة فى دار صديقى ..

وانتهزت فرصة شغل فيها الآخرون فيما يشغل به المحتفلون برأس السنة ... وقلت لها :

— لقد تركت عملى هذه الليلة اكراما لك ...

قالت : أحقا ؟ .

قلت : وجئت الى هذه السهرة خصيصا من أجلك ...

وابتسمت « س » وقالت بهدوء :

— من أجلى أنا ؟ ولماذا ؟ .

— لكى أكون بالقرب منك ...

قالت وهى تبتسم :

— وهأنتذا حققت رغبتك . ألست جالسا بجانبى ؟ .

قلت : أطمع فى المزيد ... أريد أن أكون قريبا من قلبك ! .

قالت : لم تكن هذه رغبتك منذ عام واحد أو نحو ذلك ؟.

وساءلتها عيناى ماذا تقصدين ؟.

قالت وهى تبتسم : لم تكن تتذكر وجهى ... أو حتى أننا سبق أن تقابلنا ؟ .

قلت : وهل تحقدين على ؟.

قالت : أحقد ؟ هذه كلمة كبيرة !.. وبعد فان قلبي ليس فيه مكان لحقد أو لحب .

قلت : معنى هذا ؟ .

قالت : معناه أن حياتى الآن ملأى تماما !.

قلت : ليس فيها حتى ولا رقعة صغيرة خالية ؟ .

قالت : وماذا تفعل بها ؟ .

قلت : أقف فيها ... وأنتظر !.

قالت : سيطول انتظارك ! كلا .. ان حياتى ملأى تماما . ليس فيها مكان حتى لواقف !.

قلت : هل تحبين أحدا ؟.

قالت : ومن أعطاك الحق فى سؤالى ؟ .

قلت : حبي لك ...

قالت : ما أسعد حظى !.. نسيت وجهى منذ عام ... وتحبنى الآن ؟.

قلت : ارفضى العطاء ان شئت ... ولكن لا تسخرى من السائل !.

قالت : آسفة ! .

قلت وأنا أتراجع بمقعدى وأنهض واقفا :

— لن تكونى أكثر أسفا منى ! .

قالت : الى أين ؟ .

قلت : أعود الى مكتبي وعملى فى الجريدة !.

قالت : لا تكن طفلا ... اجلس !.

وجلست . وعادت « س » تقول :

— هل نكون صديقين ؟ .

قلت : كلا ... فأنا أعرف هذه الصداقة ! وأنا أطمع فى كل شيء أو لا شيء !.

قالت : هذه أثرة !.

قلت : جوهر الحب هو الأثرة ! .

قالت : آخرون يقولون العكس ... وان جوهر الحب هو التضحية .

قلت : نعم التضحية من أجل التى نحب . لا التضحية من أجل الرجل الآخر ! .

قالت : ومن قال لك أن هناك رجلا آخر ؟.

قلت : لانك لم تجيبى على سؤالى ... هل أنت تحبين أحدا ؟ .. ثم لماذا لم يكن هناك رجل آخر اذن لماذا ؟ وكيف تكون حياتك ملأى تماما ؟ .

قالت : هل لأنى لا أحبك يجب أن تكون حياتى ... فارغة تماما ؟.. لعل من عرفت من النساء قد دللك كثيرا ! .

قلت : أرجوك ...

ووقفت مرة ثانيـة . ومددت لها يدى ... وأنا أقول : نفترق صديقين ؟ .

قالت : ونلتقى صديقين ؟ .

قلت : لا أظن أننا سوف نلتقى بعد الليلة .

قالت : لماذا ؟ .

قلت : سوف أهرب من حبى ... ومنك .

ضحكت وقالت : الى هذا الحد ؟ هل ترانى امرأة خطرة ؟ .

قلت : لا أعرف . ولكن قد أكون أنا خطرا على نفسى ! .

قالت : انك تبالغ ... ولكن هل تظل واقفا هكذا ؟ ... اجلس ! .

ومرة أخرى أطعتها وجلست ...

وعادت « س » تقول :

— أرى أنك من الرجال الذين تعودوا أن ينالوا دائما ما يشتهون .

ولما لم أجب ، قالت :

— نعم ... طفل النساء المدلل ! ! .

وغاظنى قولها فقلت :

— ومن أين لك هذه الخـبرة بالرجال ... هذه خبرة لا تكتسب الا بالتجربة ! .

وقطبت حاجبيها قليلا ، ثم قالت :

— لماذا تريد أن تجرحنى ؟ .

وهنا أقبل علينا الصديق صاحب الحفلة وهو يبتسم ويسألنا :

— كل شيء على ما يرام ؟ .

قلت : على ما يرام ! .

وقال الصديق : أطلتما الحديث ... ألا تتناولان شيئا ؟ .

ونهضت « س » واقفة . وشبكت ذراعها بذراعى وقالت :

— بى ظمأ ... تعال واسقنى شيئا ...

واختلطنا ببقية المدعوين . وأسرفت « س » فى الشراب ...

وكانت الساعة الثالثة صباحا أو نحو ذلك عندما اقترح أحد الحاضرين أن نذهب ونمضى بقية السهرة فى فندق شبرد ...

وذهبنا الى فندق شبرد ... وهناك جلست أنا و (س) الى مائدة صغيرة فى أحد أركان القاعة الكبرى الصاخبة الراقصة ...

ومدت « س » يدها بالكأس ... ومددت يدى بالكأس ...

واتكأت « س » بكأسها قليلا على كأسى وقالت :

— نشرب نخب مقابلتنا القادمة ؟ ! ...

وقاطعتها قائلا :

— لن نلتقى بعد الليلة ...

قالت — وكأنها لم تسمع ما قلت :

— نخب مقابلتنا فى باريس ..!

وسألتها : متى ؟ .

قالت : انى أغادر مصر بعد أسبوع واحد الى لندن ... وسأكون فى باريس فى أواخر شهر مارس .

قلت — أو قال الشيطان الذى فى رأسى :

— سألقاك فى باريس ! .

قالت : نحدد التاريخ منذ الآن ؟ .

قلت : نعم ... ألقاك الساعة السادسة مساء فى قاعة فندق جورج الخامس يوم ...

قالت : يوم ١٤ ابريل ! .

وابتسمت ورفعت كأسها الى فمها وقالت :

— اتفقنا ! .

وبعد لحظة ... قالت :

— لا شىء مثل المثابرة ... والكتمان . أوصيك بهما ! .

* * *

وكانت السماء تمطر عندما غادرنا الفندق ... وأذكر أننا جلسنا على درجات سلم الفندق المؤدية الى الشارع وأمسك أحدنا بمظلة — لعله أخذها من بواب الفندق — وتزاحمنا تحتها . وكان بعضنا يغنى ! .

وأوصلت « س » الى فندقها سميراميس ... ومدت عا تصافحنى وتقول :

— اذن اتفقنا ؟ .

قلت : نعم ! .

قالت : نتقابل فى باريس ؟ .

قلت : فندق جورج الخامس الساعة السادسة مساء ١٤ أبريل القادم .

وودعتها أمام باب الفندق .. وعدت الى مسكنى .

* * *

وفى تلك الليلة خط القلم فى لوح القدر أننى سوف أبيع بعد أقل من عامين اثنين ... حصتى فى جريدة المصرى ! .

فلولا هذه السهرة لما قابلت «س» ....

ولولا « س » لما سافرت الى باريس ..

ولولا سفرى الى أوروبا فى ذلك العام لما صدر منى ذلك الوعد الذى ارتبطت به وهو أن أترك جريدة المصرى فى حالة قيام ظرف معين ...

ولقد قام الظرف المعين وبررت بالوعد أو بالعهد الذى كنت قطعته على نفسى .. وفى شهر أبريل ١٩٣٨ عدت من أوربا الى مصر وأمضيت عقد بيع حصتى فى جريدة المصرى .

وكان المشترى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .

هل كان يمكن أن يطوف بخاطرى فى تلك السهرة — سهرة رأس السنة منذ عامين أو نحو ذلك — أن وعدا أعطيته لفتاة فى ساعة شراب .. أو قبلة أخذتها منها أمام باب فندق فى الظـلام سوف تطلق حلقة من تصاريف القـدر .. سلسلة حوادث يسوق بعضها بعضا ويرتبط بعضها ببعض ..

ولكن هذا حديث آخر . هذا حديث سياسة وقصة اليوم لا شأن لها بالسياسة ! .

وسافرت « س » الى انجلترا بعد أيام معدودة .. وفى أواخر فبراير

ركبت أنا الباخرة إلى مرسيليا ، ومنها الى سويسره ... ثم الى باريس ...

وفى الساعة المحددة فى اليوم المتفق عليه كنت جالسا الى مائدة صغيرة فى قاعة فندق جورج الخامس .

وأقبلت « س » ...

ولاحظت أنه لم يبد على وجهها أقل أثر أو أقل دهشة أو أقل سرور لرؤيتى ! بل تقدمت وحيتنى وجلست كأننا كنا افترقنا منذ ساعة واحدة ! أو كأنما وجودى فى باريس كان أمرا محتوما ... أمرا مفروضا ومفروغا منه ! .

وقالت وهى ترشف من قدح الشراب الذى طلبته لها :

— تعرف .. أقبلت عليك الآن وأنا أخشى أن تكون نسيتنى ...

وضحكت أنا ..

واستمرت « س » تقول ..

— ... وأن أمد يدى اليك فتقول (معذرة يا آنسة ولكننى لا اذكر أننا تقابلنا قبل اليوم) ؟ ! .

ثم ضحكت ...

وقلت أنا : يالك من حقودة ! ما زلت تذكرين ؟ ... وأنا الذى تركت عملى فى مصر وجئت هنا من أجلك ؟ .

وكنت أحسب أنها تمزح ! .

وأقبل على مائدتنا شاب وسيم الطلعة ... وحيانا بالانجليزية وعرفت من لهجته أنه أمريكى .

وقالت « س » وهى تقدمه الى :

– ريتشارد خطيبى . وحفلة القران يوم الأحد القادم ... ويسعدنا أن تحضر الحفلة ... أليس كذلك ياريتشارد ؟ .

وابتسم ريتشارد وأجاب : – بكل تأكيد ...

وأخيرا أفقت من دهشتى أو ذهولى وقلت – وأنا اصطنع الهدوء :

– هذا خبر سعيد ... مفاجأة سعيدة ... لم تقولى شيئا عنها يوم تقابلنا آخر مرة فى القاهرة ؟ .

ورفعت حاجبيها دهشة وقالت :

– حقا .. كيف لم أقل لك ؟ .. يالى من غبية ! .

وسكت ! .. سكت لأنى فهمت ! .

وتحدثنا فيما يتحدث فيه النـــاس عادة ... الطقس ... والتعديل الوزارى الأخير فى فرنسا ... ورياضة الثلج ... وان ريتشارد عاد أخيرا من شامونيكس ... الى أن وقف ريتشارد وقال انه يحسن بنا أن نحجز بالتليفون مائدة للعشاء ... ولكن أين ؟ .

قالت « س » : فى لاكريماير ... مائدة لثلاثة ...

وقلت أنا : شكرا ... ولكنى مرتبط بموعد آخر ...

وقالت هى : ما أكثر مواعيدك ! .

وتركنا ريتشارد وذهب ليحجز المائدة بالتليفون ...

وقبل أن ينطلق من فمى السؤال كالقذيفة مدت « س » يدها بحركة هادئة كأنها تهون من شأن الأمر وقالت :

— أعرف ... أعرف ماذا تريد أن تقول ... ولكننى قلت لك فى مصر ... فى تلك الليلة ... ألا تذكر ... قلت لك ان حيـاتى ملأى تماما . وكنت أظن أنك فهمت ! ...

وقلت والكلمات تحرق شفتى :

— ولكن لماذا ضربت لى موعدا هنا ... فى باريس ؟ ..

قالت وهى تبتسم :

— وهل تسوؤك رؤيتى ؟ ألم تقل لى فى مصر أنك تحب أن تكون دائما بالقرب منى ؟ .

وأقبل علينا ريتشارد ...

ووقفت « س » ومدت يدها الىّ تصافحنى وتقول :

— اذن الى الملتقى قريبا ...

ثم التفتت الى خطيبها وقالت وهى تضحك :

— اذكر له اسمك مرة أخـرى لأننى أخشى اذا قابلك أن يكون قد نسيك تماما ... الى الملتقى ...

قلت : الى الملتقى ! .

هبرما....

مأساة عادية صغيرة من مآسي الحياة...

وحقّ حبك لم أشمت بفاتنة
زَلّت بها قدم أو غرّها ذهب
فكيف اختلس الحقّ الذى اختلسوا
وكيف أذاب عن لؤم كما ذئبوا
لى ذكريات كأخلاق تؤدّبنى
فلا يخالجنى روغ ولا كذب

(الياس أبو شبكة)

هــــرما ...

بدأت حوادث هذه القصة ذات مساء من شهر مايو ...

ذهبت أنا وصديقى محسن العيسوى — طيب الله ثراه فقد مات وهو فى شرخ الشباب — ذهبنا الى صالة رقص على ضفة النيل الغربية . وكان صاحبي يقول ان فى «الصالة» فرقة من فتيات النمسا حضرت منذ أيام ... وان فتياتها يجدن رقص التيرول وموسيقى الجبــل وغناء « الغجر » أو البوهيم .

وجلسنا الى مائدة تطل على النيل . وكان فى الجــو دفء الصيف المبكر . وفى الدم بقية طيبة من ربيع الحياة ... بقية تتوثب ... الى ماذا ؟

وفى النفس ألوان من العواطف المبهمة الغامضة ! الأمل ... فى ماذا ! والشوق ... الى ماذا ؟ .

ثم الحنين الى أليف مجهول لا يزال فى ضمير الغيب ! .

حالة نفسية يعرفها كل شاب أيام الربيع ...

ومرت أمامنا فتاة شقراء لا شك أنها أجنبية وكانت ترتدى ثوبا بسيطا أبيض اللون من قماش رخيص وحــول خصرها حــزام عريض من الجلد الأسود .

كان هــذا كل لباسها . ولا حليــة ... لا فى يدها ولا فى شعرها

ولا فى صدرها اللهم الا صليبا صغيرا لعله من الفضة أو المعدن كان يتدلى فوق صدرها من سلسلة رفيعة حول عنقها ...

وشفاتاها بريئتان من « الأحمر » وخدودها نظيفة من المساحيق ! .

وكانت فى ثوبها الأبيض البسيط الرخيص ... وفى نظراتها السليمة الصريحة وفى قوامها النحيل أشبه بتلميذة قادمة من المدرسة ...

وسنها ؟ ... محال أن تزيد على سبعة عشرة ...

ومرت الفتاة أمامنا واختارت مائدة بعيـــدة فى ركن وجلست اليها وحدها ويدها تلعب بباقة من الياسمين تشمها حينا وحينا تقضم فيها بأسنانها ! .

* * *

وفى نفس المساء أو فى نفس « السهرة » عرفت أن اسمها هرما وانه غير مسموح لها بالظهور على المسرح وغير مسموح لهـــا بالجلوس مع « الزبائن » ! .

اذن من هى ؟ وماذا تعمل هنا فى الصالة ؟ .

انها مع شقيقتها الكبرى التى هى حليلة أو خليلة مدير الفرقة .

وبوليس الآداب لم يأذن لهـــرما بالرقص ولا بالجلوس مع الزبائن بسبب صغر سنها ! .

* * *

ومر أسبوع ... وكنت عرفت هرما وشقيقتها واطمأنت الاثنتان الى ووثقت منى الشقيقـــة فكانت تسمح لهرما بالخـــروج والنزهـــة معى هنا أو هناك ...

وذات مساء كنا نتمشى على ضفة النيل الغربية ولم يكن الطريق معبدا ولا مفروشا بالأسفلت كما هو الآن . وعلى صخرة تحت شجرة جلست هرما وفرشت أنا على الأرض جريدة كانت بيدى وجلست عليها ...

وكانت أشعة القمر تنفذ من خلال أغصان الشجرة وتلقى نورها على هرما ! هنا رقعة من الفضة ... العنق مثلا والكتفان ! . ورقعة تكتنفها الظلال ... الوجه مثلا ولكن تضيئه العينان ! .

أما شعرها الذهبي فقد بدا فى نور القمر الفضى كسنابل القمح التى بهت اصفرارها من طول انتظارها للحصاد ! .

ولم يتكلم أحدنا ... وفى الليل ساعات يصمت فيها كل شىء ويسكن فيها كل حى ... الا القلب والا الذاكرة تستعيد الماضى ... والا الخيال يحاول أن يطوف بالمستقبل المجهول ! .

وكانت هرما تنظر الى صفحة النهر الواسع وقد انعكست عليه أشعة القمر ومئات المصابيح الصغيرة من الضفة الشرقية ونورها الباهت وكأنه يوسوس للنهر الوديع ويستودعه سر الليل وسر الظلام ...

وفجأة اعتدلت فى جلستى والتفت الى « هرما » لأنها كانت تغنى بصوت خافت ! .

وكانت الأغنية من أغانى التيرول التى لا أفهم لغتها ... ولكن النغم كان رقيقا هادئا حزينا يعصر القلب فى خفة دون أن يضنيه ...

ثم سكتت هرما ...

وأحسست أكثر مما رأيت أنها كانت تمسح دموعها فى سكون ! .

ولم أقل شيئا ...

وبعد دقيقة أو دقيقتين قالت هى بلغتها الانجليزية المفككة :

— هل أترجم لك الأغنية ؟ .

قلت : نعم ...

وأذكر اليوم من هذه الأغنية :

« كلما هب على وجهى نسيم السحر

« اكتوى قلبى بنار الذكريات

« كلما غرد سكان الشجر

« صعد قلبى الصرخات

« الدمع يملأ حلقى والعبرة تخنق صوتى

الى أن تقول :

« وتمنى قلبى لعينى العمى

« وتمنت عيناى لقلبى الصمم »

* * *

ولا أذكر كيف ! ربما كان سؤالا منى هو الذى جرها الى الحديث ... قصة صغيرة أو مأساة عادية جدا بين مآسى الحياة ! .

قالت انها لا تذكر أمها . لأن أمها توفيت وهى طفـلة . وقامت شقيقتها بتربيتها الى أن تزوج أبوها من امرأة شريرة أحالت دارهم الصغيرة فى أنسبروك جحيما لا يطاق ! .

وانصرف أبوها الى الشراب حتى أدمن . وكان فى ساعات سكره يبكى أحيانا رحمة بالفتاتين ! وأحيانا يشترك مع زوجته فى ضربهما ! .

وذات يوم قابلت الشقيقة شابا يحترف الرقص فى فرقة متجولة . وأغواها الشاب بالهرب معه . وكانت اليزابيث — الشقيقة الكبرى — تجيد رقص الجبل وغناء التيرول ...

وقالت هرما : وذات ليلة أيقظتنى اليزابيث من نومى وكنت فى العاشرة من عمرى . وتسللنا من الدار ومعنا حقيبة صغيرة كانت اليزابيث جمعت فيها كل ثيابنا القليلة ...

وقابلنا صديق اليزابيث الذى أصبح اليوم مدير الفرقة ...

ثم قالت : وهاهى ستة أعوام قد مضت منذ فارقت أنسبروك ... وأنا كما ترى لا أرقص ولا أغنى وأعيش عالة على شقيقتى وصديقها ! .

* * *

وقمنا لكى ندرك شقيقتها قبل أن تغادر صالة الرقص فقد كانت الساعة الثانية صباحا ...

وشىء ما علق بطرف ثوبها وهى تقف ... وتمزق ذيل الفستان ! .

وضحكت هرما بمرارة وهى تقول :

— لو كان عندى عدة فساتين لما كان هذا الثوب قد تمزق ! ولكن لأنه ثانى ثوبين لا أملك سواهما يجب أن يتمزق ! ألست من رأيى ؟ .

وضحكت أنا وقلت : هذه فلسفة على من كانت فى مثل سنك ! .

وأدركنا شقيقتها وأوصلتهما الى باب العمـــارة التى كانتا تقيمان فى « بنسيون » بها ... وقلت لها وأنا أودعها أمام الباب :

— هل تسمحين لى أن أشترى لك غدا ثوبا بدلا من الذى تمزق ؟ .

وابتسمت هى وقالت ببساطة : ليس لمن كان فى حالتى أن يرفض الاحسان ! .

وقبل أن أحتج على عبارتها بكلمة منـاسبة سحبت يدها ولحقت بشقيقتها ...

* * *

وخرجنا معا فى الصباح ... ومررنا بالمحلات الكبيرة ولكنها كانت تهز رأسها وتقول ان الثوب لا يعجبها ! .

وأخيرا وفى محل صغير متواضع أعجبها ثوب ثمنه مائتا قرش ! .

وفهمت ! وأدركت هى أنى فهمت وابتسمت وقالت :

— ماذا يقول أفراد الفرقة عنى اذا خرجت عليهم بثوب من الحرير أو بثوب يزيد ثمنه على مرتب شقيقتى شهرا كاملا ! .

وعرضت عليها أن اشترى لها قبعة — فقد كانت تسير من غير قبعة فى حرارة الشمس — وحذاء وحقيبة يد وقفازا ... الى آخره ! .

وتمهلت هى فى سيرها وأنا أتكلم ثم وقفت وحدجتنى بنظرة وقالت بصوت هادىء :

— قل لى بصراحة ماذا تريد منى ؟ ! .

ولعلها وجـدت جوابها فى نظرتى لأنها خجلت من شكوكها وأحمر وجهها وقالت :

— معذرة ! أنت تعرف أى اعتبار يمكن أن يكون لفتاة مثلى فى عيون أمثالك !! شقيقتى تعمل راقصة وأنا أعيش فى جو الصالات ! ولقد كنت أريد دائما أن أقول لك اننى ...

ثم أطبقت شفتيها ولم تكمل عبارتهــا ! وهزت كتفيها ! واستأنفنــا سيرنا ...

وفهمت أنا ماذا كانت تريد أن تقول ! .

* * *

وفى المساء سمعت أن مدة عقد الفرقة مع « صالة الرقص » قد انتهت وسألتها فقــالت : نعم وســوف نغادر القــاهرة الى الاسكندرية فى يوم الخميس ...

وابتسمت وسألتنى : هل تحضر الى الاسكندرية ؟ .

قلت : بودى ولكننى متهم فى قضية أمام محكمة الجنايات . وموعدها يوم السبت ...

وقطبت حاجبيها وتساءلت عيناها ...

وضحكت وقلت : قضية صحفية سياسية ...

وقالت هى : طبعا فانت صحفى . كم أنا غبية ! .

* * *

وودعتها صباح الخميس على رصيف محطة القاهرة ووعدتها باللحاق بها فى الاسكندرية بعد ظهر يوم السبت وقلت :

— سوف أمضى فى الاسكندرية يومى السبت والأحــد وأحضر سباق الخيل وأعود الى القاهرة فى صباح الاثنين ...

واعطتنى عنوانها فى الاسكندرية وصافحتها وانصرفت ...

أما القضية فكانت قضية « الحصاينة » مركز السنبلاوين . وكانت

النيابة العمومية قد قدمتني الى محكمة الجنايات بتهمة القذف فى حق وزير العدل أحمد على باشا والنائب العمومى (المرحوم) محمد لبيب عطية باشا ومأمور مركز السنبلاوين ولا أذكر اسمه اليوم وذلك باننى نسبت الى الثالث التزوير فى محضر التحقيق ونسبت الى الأول والثانى التستر و « الصهينة » على جريمة المأمور ...

وذهبت الى دار المحكمة فى صباح السبت ومعى فى السيارة حقيبة ... لكى أغادر المحكمة الى المحطة الى الاسكندرية ...

كنت واثقا من براءتى ! أو هذا هو تقريبا شعور كل «متهم» ! .

وكان محامى (المرحوم) صبرى أبو علم باشا والدكتور محمد صلاح الدين بك .

وكان رئيس الدائرة المرحوم محمد بك نوز وممثل النيابة رئيس نيابة الاستئناف (يومئذ) محمود منصور بك ...

وفى آخر الجلسة وبعد سماع الاتهام والدفاع أجلت المحكمة النطق بالحكم الى اليوم التالى ...

وخرجت من دار المحكمة وأنا موقن من نظرات المحكمة ومن لهجتها ومن أسئلتها التى وجهتها الى بأن الحكم سوف يصدر بالادانة وبالحبس !

ولكنى سافرت الى الاسكندرية ...

واذا كنت سأدخل السجن فلا بأس من أن أمضى هذه الليلة — الأخيرة — فى الاسكندرية ... وغدا الى السجن ! ! .

وقالت هرما وهى تصافحنى :

ـ براءة ؟ .

قلت : لا براءة ولا ادانة ... الحكم غدا ! .

قالت : وماذا تظنه سيكون ؟ .

قلت : لا أظن شيئا ! .

وتركتنى مع شقيقتها وذهبت ترتدى ثيابها ...

وقالت اليزابيث : قل لى الحقيقة ...

قلت : الحكم سيكون بالحبس فيما أعتقد ! .

قالت : اذن بربك لا تقل شيئا لهرما ...

وتحدثنا فى هذا ومثله الى أن عادت الفتاة وقالت لها شقيقتها :

ـ تستطيعين أن تقضى السهرة معه (أى معى) وليس ضروريا أن تمرى على بالصالة ... ولكن لا تتأخرى كثيرا ...

وكانت الساعة الثامنة مساء عندما بدأنا طوافنا ...

لم نترك مقهى أو مطعما أو مرقصا الا دخلناه وتناولنا شيئا فيه ... وغالبا كأس شراب ! .

كنا كطفلين يتمتعان بحريتهما لأول مرة ! .

وقالت هرما ـ وكنا فى كاباريه الاكسلسيور ...

قالت من غير مناسبة ولعلها ثملت من كأس النبيذ الأخيرة :

ـ كنت أريد دائما أن أقول لك اننى ...

وسكتت ... وأكملت لها عبارتها :

ـ انك عذراء ! .. أليس كذلك ؟ .

قالت : نعم فهل انت آسف أو نادم ؟ .

قلت : لا أنا آسف ولا أنا نادم ! بل صدقيني ان نظرتي اليك كانت بريئة من هذا الذى تفكرين فيه ! ولكن لماذا ... لماذا الليلة فقط أردت أن أعرف ؟ .

قالت : قد تكون الليلة آخر مرة ألقاك فيها فانت قد تفارقني غدا ... ولا أدرى هل ستعود الى الاسكندرية أم لا ... ونحن قد نسافر الى اثينا بعد أسبوعين . وبودى ...

وتحركت يداها كأنها تبحث عن العبارة المناسبة ...

— بودى لو أستطيع أن أقدم لك شيئا ! ولكن ...

وضغطت أنا على يدها فى رفق وقلت :

— هس ... ان حديثنا يشوش على جيراننا الذين ينصتون لهذه المغنية ...

وكانت هناك على المسرح مغنية ... وكان جيراننا — فى الصف الذى أمامنا — المرحوم حمد الباسل باشا وعطا عفيفى بك ...

وأوصلتها الى مسكنها فى الساعة الثالثة صباحا وقبلت يدها وانصرفت ! .

* * *

وأيقظنى خادم بالفندق فى الساعة العاشرة صباحا ...

مصر تطلبنى بالتليفون ... وأبلغني صديق أن الحكم صدر على بالحبس البسيط أربعة أشهر ! .

وعدت الى فراشى ونمت ! .

واستيقظت فاذا بها الساعة الثانيــة بعد الظهر وقمت مسرعا الى حقيبتى ...

لابد من مغادرة الاسكندرية والعودة فورا الى القاهرة لكى أتقدم بنفسى الى البوليس قبل أن يبدأ البوليس بحثه ... وقد يقبض علىّ فى الفندق ! .

كله الا هذا ...

ومررت فى طريقى الى المحطة بالبنسيون الذى تقيم فيه هرما وكانت لا تزال نائمة ...

ودخلت بى شقيقتها الى غرفة نومها وأيقظتها ! ثم انسحبت وتركتنا وحدنا ...

وجلست فى مقعد الى جانب فراشها وقلت لها : اننى عائد الآن الى القاهرة بقطار الساعة الثالثة لأن الحكم صدر على بالحبس ...

ووثبت من الفراش بقميص نومها الرقيق ...

وكانت ثورة ... ثورة طفلة لا تدرى ماذا تقول ولا ماذا تفعل ! .. كانت الكلمات تنطلق من فمها خليطا من الألمانية والانجليزية بل وكلمة هنا وهناك باللغة العربية ! .

ووقفت وأنا أحاول الابتسام وأهدىء من ثورتها ... ومرت دقائق قبل أن تصغى الىّ ! .

وقلت لها : سوف ألقاك فى يوم ما فهل تعدين اننى سوف أجــدك يومها كما أتركك الآن ؟ .

قالت : أعدك ! .

ثم تناولت صليبها الصغير المتدلى من عنقها وقبلته وقالت :

— أقسم لك ! وهذا الصليب سوف يحمينى ! .

هذا والوقت يمر ...

ومددت يدى أصافحها وعلى فمى ابتسامة باكية .

قالت : قبلنى ..

وقبلتها .. لأول مرة .. وآخر مرة ! .

وأسرعت الى المحطة وأخذت مقعدى فى القطار ... وان هى الا دقائق حتى رأيتها على الرصيف أمام النافذة ...

ومدت يدها بورقة وقالت :

— لقد نسيت . هذا عنوانى فى أثينا .. وفى أنسبروك . من يدرى ! . ربما عدت الى بلدى . فهذه الحياة لا تعجبنى ! وأبى هو أبى على كل حال ! .

وأدارت ظهرها وانصرفت من غير كلمة أخرى .. وتحرك القطار ! .

ودخلت السجن فى أواخر مايو . وجاءتنى منها بطاقة (كارت بوستال) من الاسكندرية وبطاقة ثانية من أثينا وثالثة من بيروت ..

وخرجت من السجن فى أواخر سبتمبر .. وبعد أيام أرسلت الىّ مصلحة السجون بطاقة رابعة وكانت من مالطة ...

ومرت أسابيع وحمل الىّ البريد خطابا منها.. وقد أرسلته من أنسبروك وفيه أن اليزابيث قتلت فى حادثة سيارة .. وأنها — هرما — قد عادت الى دار أبيها فى انسبروك ...

وسافرت أنا الى أوروبا فى شهر مارس أى بعد خروجى من السجن بخمسة شهور ..

واعترف أننى لم أسافر الى انسبروك .. وأننى صرفت نفسى عن التفكير فى هرما ! .

وعدت من أوروبا فى الصيف فوجدت خطابين منها ولم يكن فيهما شىء جديد أو شىء يلفت النظر ! .

ثم انقطعت رسائلها ...

وبعد .. فان بين أسرار النفس وما تنطوى عليه الحنايا مالا يستطيع الكاتب أن يعريه أمام الناس ! .

ومرت سنوات .. الى أن كان شهر يونيه ١٩٣٦ ...

* * *

وكنا سافرنا الى أوروبا — محمود أبو الفتح وكريم ثابت وأنا أصحاب جريدة المصرى فى ذلك الوقت — لنشترى ماكينات للجريدة .

ونزلنا فى جنوا ومنها مررنا بميلانو ولوجانو ثم زيوريخ وسانت أنطون . وكنا نمضى فى كل بلدة يوما أو يومين .

ومن سانت أنطون هبطنا الى عاصمة التيرول النمسوى انسبروك فى طريقنا الى فيينا وبودابست ...

والصدفة وحدها هى التى رسمت لنا خط السير ! ولم تكن لى أنا يد فيه ! .

واتفقنا على أن نمضى الليلة فى إنسبروك . وخرجت أنا وأصدقائى نسير فى شوارع البلدة ثم جلسنا فى مقهى فيه رقص وغناء ...

وشيء ما أيقظ فى نفسى ذكرى نائمة .. وتركت أصدقائى وقمت ..

وأنا أحمل معى دائما فى أسفارى دفترا صغيرا أدون فيه عناوين أصدقائى فى مدن أوروبا وأرقام تليفوناتهم . ووجدت عنوان هرما الذى كانت أعطتنى اياه على رصيف محطة الاسكندرية منذ سنوات ذات يوم فى شهر مايو ...

وكانت الساعة نحو التاسعة مساء .. وكانت السماء قد تلبدت فجأة بالغمام وكان فى الجو نذير العاصفة .. جو ساخن خانق مشبع بالرطوبة !.

ووقفت بى سيارة «التاكسى» أمام عمارة فى حى متواضع . وسألت البواب عن هرما — ذكرت اسمها ولقبها — وقال الرجل انها تركت هذه الدار بعد وفاة أبيها ...

توفى أبوها منذ ثلاثة أعوام ! .

وسألنى البواب — وكان فى لهجته شيء ما لم يرقنى — هل أنا حريص على مقابلتها ؟ .

قلت : نعم .

ونفحته بعطاء . وخرج الرجل معى الى سائق التاكسى ووصف له بالألمانية عنوان هرما الجديد ! .

* * *

وكانت هرما فى منزل يدار للدعارة ..!.

واستقبلتنى ربة البيت أو مديرة البيت لا أدرى وسألتنى عمن أريد مقابلتها ؟ ولما ذكرت لها اسم هرما قالت : اسمها الآن ماجدا ..

وابتسمت وأضافت :

— انها من طبقة تعتبر عادة أعلى من طبقة زميلاتها ولهذا رأينا أن نغير اسمها .. وهل تريد أن تقابلها مقابلة عادية أو خصوصية ؟.

وقلت أنا : ما الفرق ؟ .

قالت : العادية محددة الوقت بنصف ساعة فقط ! والخصوصية غير محددة أى لك أن تمضى الليلة كلها معها ! .

وابتسمت مرة أخرى وقالت :

— العادية عشرون شلنا .. والخصوصية خمسون ..

وكان الشلن النمسوى يساوى يومئذ تقريبا ما يساويه الشلن الانجليزى .

وقلت أنا . مقابلة خصوصية ..

وخرجت هى من غرفة الاستقبال وأنا أعد المبلغ وأضعه على المائدة...

* * *

لماذا ؟ .. هذه المقابلة ؟ .. هذا الموقف ؟ .. لماذا وقد عرفت ما عرفت ، لماذا بقيت فى الدار ولماذا طلبت أن أراها ! . وأدفع الثمن ؟ .

أى شيطان ركبنى وأغرقنى فى لجة من الذكريات وأنا الذى سكت أربع سنوات .. ونسيتها أو ظننت انى نسيتها .. لماذا الليلة ! .

ودخلت هرما أو .. ماجدا وقد تدلى فوق صدرها صليب الفضة الصغير ! ؟ .

وبحركة طبيعية — أو بحكم العادة ! — أغلقت وراءها الباب قبل أن

تلقى على « الزبون » نظرة .. أى قبل أن تراني .. أنا « الزبون » ! .

ووقفت أنا وتلاقت النظرتان ! .

وخطت خطوة الىّ .. ثم تسمرت فى مكانها ! .

ومرت دقيقة ! وأخيرا قلت لها : — مساء الخير ! .

ولم ترد هى التحية ! . ومرت لحظات .. ثم انفجرت هى ! .

وانطلق من فمها سيل من ألفاظ لم أفهمها .. ولكننى أدركت أنها شتائم ! .

وأدركت هى أنهـا تشتمنى بالألمانيـة التى لا أفهمها فتـوقفت ثم أمسكت بمقعد وجلست على حافته ووضعت ساقا على ساق ...

وقد استحال وجهها الى رقعة اشتبك فيها الحقد والألم والتحدى .. رقعة بيضاء بلون الشمع شاحبة مشدودة كالموت ! .

وقالت بصوت منخفض أجش : — لماذا جئت ؟ .

قلت : لأراك .. ألم تتواعد على اللقاء فى يوم ما ؟ .

وكانت عيناها على المائدة ! وكأنها كانت تعد النقود ...

وقالت وعيناها فى عينى : — حسنا ! . قم بنا اذن ... الى غرفة النوم ! .

وشىء ما فى لهجتها قتل كل ما كان فى نفسى من مرارة !.

والرحمة . . الرحمة وحدها هى التى غمرت قلبى وجعلتنى أقف وأخطو اليها وأمسك بيدها ..

ولكنها استمرت تقول وقد وقفت هى أيضا :

— هيا بنا .. لقد حضرت لتراني .. وها أنت قد دفعت الثمن ...
كم دفعت ؟ .. خمسون شلنا كما أرى !. تريد أن تقضي الليلة كلها معي !.
ولكنك دفعت الثمن مقدما منذ سنوات .. أليس كذلك ؟.

هذا وهي تجمع بيدها النقود من على المائدة .. وتضعها فى جيب سترتى ! .

وأمسكت أنا بكتفيها وأجلستها فى مقعدها وجلست أمامها ...

ماذا أقول لها !.

ولعلها أدركت هي ما فى خاطرى لأنها قالت :

— تريد طبعا أن تسألنى !! ولكن تسألنى بأى حق ؟ .

قلت : بحق صداقتنا فى مصر ...

قالت بمرارة : صداقة ! لم تكن هناك صداقة !.. انكم جميعا سواء ! كل شيء بالثمن ! ولا عطاء من غير مقابل ! .

قلت لها وأنا احكم أعصابى : — وما الذى منعنى يومها اذن ؟ .

قالت : كنت طفلة .. وكنت عذراء .. وخشيت أنت المسئولية ! .

ثم ضحكت بعصبية واستطردت تقول ...

— أربع سنوات علمتنى الشيء الكثير ولم أعد طفلة ... ولقد صدقتك هناك فى مصر والاسكندرية ... صدقت انك ... ولكن ما الفائدة ... قم بنا ! .

ووقفت مرة أخرى . ووقفت أنا ... وقلت : — اكملى ! .

قالت : لماذا لم ترد على خطاباتى ؟ ولماذا حضرت بعد سكوتك أربع

سنوات ؟ حضرت أيها السيد لأن طفلة السادسة عشرة لابد أن تكون قد نضجت فى سن العشرين ! زرعت ... وجئت تحصد ! ولكن ...

ضحكت طويلا وقالت :

— غيرك ! .. كثيرون ... كثيرون غيرك سبقوك ! .. ولكن ماذا يهم ! .

وكنت أنا قد مشيت الى باب الخروج ...

ولكنها لحقت بى وامسكت بى وقالت :

— هكذا لأن آخرين سبقوك ... أصبحت لاتريدنى ولا تشتهينى ؟.

ولم تكن هناك مرآة أرى فيها وجهى ... ولكن لا بد أن شيئا ما فى وجهى نفذ الى أعماق نفسها ... الى النطفة النظيفة التى أودعها الخالق فى قرارة كل نفس ...

لأنها هدأت ، وتلاحقت انفاسها ... ثم صفت عيناها وقالت ببساطة :

— سامحنى ! . (وبعد لحظة) ... هل تقبلنى ؟ .

ولم أجب ! . وقالت : — كما تريد ... وخذ هذا فلم يعد لى حق فيه ! انه لك !...

وكانت خلعت السلسلة بصليبها الفضى ووضعتها فى جيبى ...

ووقفت هى على رأس السلم وأنا أنزل الدرج ...

ولم ألتفت ورائى! ولكننى أحسست أكثر مما رأيت ... انها كانت واقفة على رأس السلم تبكى وتمسح دمعها فى سكون ! .

* * *

وخرجت الى الشـــارع . وكان الجـــو قد صفا بعد مرور العاصفة القصيرة ...

ومشيت أبحث عن تاكسى . وعند منعطف الشارع وقف عجوز يغنى وقد مد قبعته للمحسنين ...

وكان يغنى أغنية تذكرتها من نغماتها !. أغنية كنت سمعتها منذ سنوات على ضفة النيل ...

« الدمع يملأ حلقى والعبرة تخنق صوتى

... ...

... ...

« وتمنى قلبى لعينى العمى

« وتمنت عيناى لقلبى الصمم »

ووضعت فى قبعة العجوز الخمسين شلنا التى كانت فى جيب سترتى ...

وقال الرجل : — الله معك ...

وعدت اليه وأنا أمسح دمعة وقلت :

— وخذ هذا أيضا ! .

ووضعت فى قبعته السلسلة والصليب ! .

سانتا مرغريتا

امرأة ... نصف ملاك . ونصف شيطان !

فإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هـذه
فـكونوا نساءً فى المنـازل والحْجل
فلو أننـا كنا رجالا وكنتمُ
نساءً لـكنّـا لا نقيم على ذَحْل
فقُبْحاً لبعلٍ ليس فيه حميّـة
ويختـال يمشى بيننا مشْية الفحْل

(غفيرة بنت غفار ــ شاعرة عربية)

سانتـا مرغريتا

لا أذكر الآن على وجه التحديد كيف عرفتهما . ولكن كل أحد كان يقول عنهما أنهما أسعد زوجين .

كان هو أجمل رجل فى الفندق . وكانت هى أجمل امرأة لافى الفندق فقط بل فى سان موريتز كلها . وسان موريتز تعد فى موسم الشتاء معرضا عالميا للجمال .

وكان مارسيل — هذا اسمه ودعنا من لقبه — من نبلاء المجر وفى الثلاثين من عمره . وكانت مرغريت ألمانية المولد والأصـــل من مدينة ميونيخ . وفى الخامسة والعشرين من عمرها .

شقراء . ذهبية الشعر . فى عينيها خضرة مشوبة بسمرة . وذات ليلة — وكنا وقوفا فى ضوء القمر — رأيت أو خيل الى أن لون عينيها قد إستحال الى بنفسجى داكن مشوب بفضة ! .

وكانت مرغريت ترخى شعرها فوق جبينها وتجمع جدائله وراء الرأس فى شريط حريرى .

نظراتها مستقيمة صريحة . اذا تحدثت بادلتك نظرة بنظرة لا ترخى ولا يرتجف لها رمش ! .

كانت لهـــا صراحة الطفلة ! وكان لها فى الوقت نفسه دلال المرأة

الناضجة ! وكان زوجها مارسيل يقول عنها وهو يمر بيده فوق جدائل شعرها المسدول أنها نصف ملاك ونصف شيطان ! وان كلا من النصفين يتربص بصاحبه ! .

وكانت هي تضحك وتسأله : ترى من الذى سيفوز بين الاثنين ؟ .

ويرد عليها مارسيل : لن يفوز أحدهما على صاحبه ما دمت الى جانبك! .

وكانت تضىء فى عينيها نظرة حالمة ... أو نظرة غامضة ! .

أما أنا فكنت أناديها مداعبا : سانتا مرغريتا أى القديسة مرغريتا .

ولم تمر أسابيع قليلة على بدء معرفتنا حتى كانت الصداقة تربط بيننا بأوثق رباط . فكنا ننادى بعضنا بالاسم الأول مجردا من اللقب ... مارسيل ومرغريت ومحمد ...

كنا نخرج معا . ونتسلق الجبال معا . ونسهر معا . وقل أن يمر يوم دون أن نلتقى فيه ...

* * *

سألتنى ذات يوم أمام زوجها : — لماذا لم تتزوج ؟ .

قلت : هذا حديث طويل ... ولكنى انتهيت الى أن أوان الزواج قد فات ! .

قالت : أمعنى هذا أنك لن تتزوج حتى ولو أحببت ؟ .

قلت : ربما ! ...

قالت : لو كانت لى شقيقة لزوجتها ! .

وابتسمت أنا وقلت : وكيف ؟ .

قالت : نعم . لأنك تحبنى ! .

وانفجر مارسيل ضاحكا ! وجاريته أنا فى الضحك ... ولكن بمجهود فقد ارتبكت من صراحة أو جرأة هذه الطفلة المرأة ! .

وقلت مازحا – أو هكذا حاولت – ومن الذى يستطيع أن لايحبك؟.

وخيل الى أنها غضبت ... ومن زوجها بوجه خاص ! وعادت تقول :

– نعم . كنت تتزوج من شقيقتى لأنك كنت تجد فيها صورة أو عزاء عنى ! .

ونهض مارسيل واقفا وهو لا يزال يضحك وقال :

– ترفقى بعحمد ولا تثقلى عليه بعبثك ... أما أنا فعندى خطاب لا بد أن أكتبه الآن ... وسألحق بكما بعد ساعة ...

ولما انصرف ساد الصمت بيننا دقيقة أو أكثر ... الى أن قالت :

– أنت تحبنى ... أليس كذلك ؟ .

قلت : أحبك كصديقة ! .

قالت : تكذب ! .

ما هذه المرأة ! ما قصدها ؟ هذه الصراحة ! هذه الجرأة ! ماذا تريد ؟ .

وأخيرا – وفى صوتى غضب أو حنق لم أحاول أن أخفيه :

– وهل كان فرضا عليك – اذا كان هذا اعتقادك – أن تحرجينى امام زوجك ؟ .

ورفعت كتفيها وقالت :

– هل أزعجتك غيرته ؟ .

وقالتها بسخرية ! .

قلت : ليس هناك ما يغار منه !! وبعد فنحن أصدقاء ... وهو يثق بى ! .

قالت : كلا . انه لا يثق بك ولا بسواك من عشرات الأصدقاء الذين نختلط بهم هنا وفى بودابست ولندن ... ولكنه يثق بى أنا فقط ! .

* * *

وذات مساء وكنت أزمعت السفر فى اليوم التالى الى ايطاليا سألتنى مرغريت :

— وبعد ايطاليا أين تذهب ؟ .

قلت : مونت كارلو ثم باريس وبعدها أسبانيا ...

والتفتت الى زوجها وقالت :

— اننى لم أزر مونت كارلو حتى اليوم . ما رأيك فى أن نلتقى هناك بمحمد ونمضى معا أسبوعا قبل عودتنا الى لوجانو ؟ .

ووافقها زوجها . واتفقنا على أن نلتقى فى مونت كارلو فى يوم كذا من شهر مارس .

... ...

وعدت من ايطاليا قبل الموعد بيوم ووجدت برقية من مارسيل أنهما يصلان غدا بقطار كذا ...

وقابلتهما فى المحطة وذهبت بهما الى فندق باريس حيث كنت أقيم ...

وكان بين ألوان الطعام التى تناولناها فى عشاء الليلة الأولى طبق

« البويابيس » وهو حساء تدخل فيها عدة أصناف من السمك والمحار .

وأقبلت عليه مرغريت بشهية وهى تقول انه ألذ الأطباق التى ذاقتها فى حياتها .

وقلت : أذن لابد أن تذوقى « بويابيس » مطعم كاراماللو .

قالت : وأين هو ؟ .

قلت : كان هنا فى مونت كارلو .. ولكنه نقل بعد الحرب الى بلدة «بوسولى» وهى تبعد عن هنا خمسة عشر كيلو مترا .

واتفقنا على أن نتناول العشاء بعد غد فى مطعم كاراماللو ...

وأقبل «بعد غد» ووقفت فى ردهة الفندق أنتظر الزوجين .. وأقبلت مرغريت وحدها وهى تقول ان مارسيل يعتذر من عدم الذهاب معنا لأن « البويابيس » أتعب معدته ...

قلت : ولماذا لم يقل هذا فى الصباح ! واذن كنا اتفقنا على تناول عشاء آخر هنا أو فى أى مطعم آخر ...

قالت : أصبت . ولكن مارسيل يحرص دائما على تحقيق رغباتى ولما كنت أبديت اعجابى بالبويابيس ...

وهزت كتفيها ... وسكتت ...

* * *

وانطلقت بنا السيارة فى طريق بوسولى ...

ومنذ الدقيقة الأولى ، أحسست أن فى الجو الذى بيننا « شيئا ما » وانطلقت أتحدث فى كل شىء وعن لا شىء ...

ألحدث والسلام حتى أبدد هذا « الجو » أو هذا الصمت المخزون ! .

* * *

وظلت هي صامتة لا تجيب ولا تعلق بشيء .

ووصلنا الى مطعم كاراملو ...

وجلسنا حول المائدة المحجوزة لنا ... وكانت الموسيقى تعزف وكان بعض الحاضرين ينهض ويخاصر صاحبته فى دور « رقص » ثم يعود الى مائدته ويستأنف عشاءه ...

وسألتنى مرغريت : لاحظت أنك لا ترقص لماذا ؟ .

قلت : هذا حديث طويل ...

قالت : كنت ترقص ؟ .

قلت : نعم ! .

قالت : ثم ؟ .

قلت بابتسامة : ألم أقل أنه حديث طويل ! .

وقالت هى بعد لحظة وقد ثبتت نظرتها فى عينى :

لماذا تتكلف الغموض ؟ هل قيل لك أن الغموض يفتن المرأة ؟ .

قلت : لست مغرورا لهذا الحد حتى أحاول فتنة امرأة ما ! .

قالت : هذا صحيح فلست مغرورا . أما مارسيل فهو كثير الغرور ! أوه ! مغرور الى حد لا يطاق ! وأما أنت ... بالعكس ... أنت مصاب بمركب النقص ! .

قلت : شكرا . وماذا أيضا ؟ .

قالت : هل يطيب لك أن تسمع ؟ .

قلت : طبعا . مادمت تفهميننى خيرا مما أفهم نفسى ! .

قالت : لعلى أغضبتك ؟ .

قلت : الحقيقة وحدها هى التى تغضب ! .

وهنا ضحكت وقالت : اذن فقد كنت مخطئة ؟ .

قلت : أنت تخطئين ؟ مستحيل ! .

قالت : لا تسخر ! نعم أخطأت اذ قلت أنك لست مغرورا !! .

وكنا انتهينا من تناول العشاء ...

وقالت وهى تنهض واقفة : قم بنا نتمشى قليلا هناك ...

وأشارت بيدها الى « اللسان » الممتد داخل البحر ...

ومطعم كاراملو قائم على حافة الشاطىء مباشرة ... وأمامه « لسان » عريض ضارب فى البحر . وفى فصل الصيف توضع الموائد فوق هذا « اللسان » . وكنا لا نزال فى مستهل الربيع . ومن ثم كان « اللسان » خاليا الا منا نحن الاثنين ...

ووقفنا فى آخر « اللسان » نرى الذين فى داخل المطعم المضاء بالأنوار الساطعة ...

وأما هم فلا يروننا لأننا كنا واقفين فى الظلام ! .

واقتربت منى مرغريت وهى تقول :

— هل كان مارسيل على حق ! .. اننى أشعر بصداع ! لعله « البوبايبس » ! .

ثم قالت وهى تريح رأسها فوق صدرى ...

— سو ! . « أى هكذا » .

قالتها بالألمانية . وتمتمت شفتاها قليلا بالألمانية التى لا أفهمها ... ثم قالت :

— أرجوك محمد ...

ولم أنطق أنا بحرف ! .

وقالت : سو ... سو ... ولكن أرجوك ... لا تشد أعصابك هكذا ... استرخ ... استرخ ... انس نفسك قليلا ! قليلا أيضا ... استرخ ولا تقاوم ! .

واحتوتها ذراعاى وتلاقت الشفاه فى قبلة طويلة ! .

* * *

وفى السيارة ... فى طريق العودة قالت :

— اذن أنت تحبنى ؟ .

ولم أجب ! .

قالت : ولكن مارسيل جميل الطلعة !! .. ثم هو أصغر سنا منك بكثير أليس كذلك ! .

قلت : كذلك ماذا ؟ .

قالت : هذا هو السبب ! السبب الذى أسكت لسانك ! .

قلت : بعض السبب لا كله ! .

قالت : والبعض الآخر ؟ .

قلت : هذا حديث طويل ! .

قالت وهى غاضبة : حتى الآن ؟ أما لهذا الغموض من آخر ؟ .

قلت : ما الفائدة ؟ .

قالت : أصبت ...

واحتوت نفسها فى ركن من السيارة ... وساد الصمت بيننا الى أن وصلنا الفندق ! .

* * *

ووجدنا مارسيل ينتظرنا فى الردهة .

وقال وهو يقبل زوجته : هل كان العشاء لذيذا ؟ .

قالت : نعم ... ولكن كان هناك ما هو ألذ من العشاء ! .

قال : صحيح ! ماذا ؟ .

قالت وهى تنفجر ضاحكة : لقد قبــلنى محمـــــد !! ..

وأحسست أن نارا قد اشتعلت فى أذنى ! وان كل قطرة دم فى قد صعدت الى وجهى ورأسى ...

ونظر الى مارسيل وهو يبتسم ولا يقول شيئا ! ..

هذا وهى تضحك وتقول :

— أنظر ! أنظر اليه ... انه كالطفل ! لقد احمر وجهه ...

وأخيرا قلت : ان مزاحك ثقيل ...

صاحت : مزاحى ؟ قل ... ألم تقبلنى ؟ .

وأدركت أنه لن ينقذنى وينقذ الموقف سوى الجرأة فقلت :

— نعم ! ولكن بعد أن شكوت لى من صـــداعك الأليم ووضعت رأسك على صدرى ...

وقال مارسيل ضاحكا : ألم أقل لك أنها نصف ملاك ونصف شيطان ! .

وألقت مرغريت على زوجها نظرة ... ثم صاحت : أ سعدتم مساء ! .

وولت عنا هاربة ! .

* * *

وحل يوم الرحيـــل ... هما الى ايطاليـــا ومنها الى لوجانو فى سويسرا ... وأنا الى باريس .

وعلى افريز المحطة وقد شغل مارسيل عنا بالحقائب والحمالين قالت لى وهى تصافحنى :

— أرجوك أن لا تظن بى سوءا ! اننى لم أخن زوجى ولا مرة واحدة حتى اليوم ! ولكن من يدرى ! اننى أحبه ... أوه ! كم أحبه ! ولكنه يقتل حبى يوما بعد يوما ...

وقلت أنا : كيف ! انك تظلمينه ! ان مارسيل من ألطف الأزواج ! بل انى لا أعرف زوجا يبدى مثل هذه الثقة فى زوجته ...

وقالت هى بصوت هادىء :

— وهذا تماما ما أشكو منه ! لو انه كان يغار علىّ ... ولو قليلا !.. ولكن هذه الثقة العمياء هى التى تقتل حبى ... يوما بعد يوم ! ..

مدموازيل م...
قديسة تشتغل مانيكان

إن عينى بها أحقّ من المو
ت وقلبى بها من القبر أوْلى !

(الملاح التائه ــ على محمود طه)

مدموازيل م . . . .

غادرت ايطاليا الى مونت كارلو لأننى كنت اتفقت مع صديقى المجرى مارسيل وزوجته مرغريت أن نلتقى هناك ونمضى معا بضعة أيام قبل أن أعود الى باريس . وكان الموسم فى أوجـه . ومشاتى الريفييرا تغص بالزائرين . ومعظمهم من الأمريكان وخصوصا أمريكى الجنوب أصحاب الملايين من تجار المواشى والغلال .

وذات يوم قالت مرغريت — أو ســانتا مرغريتا كما كنت أمزح وأدعوها — أن كارفن محل الأزياء الشهير فى باريس قــد أوفد بعض فتياته « المانيكان » ليعرضن أزياء الصيف فى حفلة كبرى ساهرة . وان الحفلة تقام مساء الغد فى نادى سبورتنج ويجب أن نبــادر الى حجز مائدتنا للعشاء ...

وليس نادى سبورتنج — كما قد يفهم من اسمه — ناديا للألعاب الرياضية وانما هو نادى الخاصة وكبار اللاعبين — أى المقامرين — ويقع النادى فى بناء مستقل . ولكنه ملحق بالفندق الذى كنا نقيم فيه ، وهو فندق باريس .

ومحال الأزياء فى باريس توفد فتياتهــا عادة الى المصايف والمشاتى الشهيرة فى أوربا لكى يعرضن فى الخريف مثلا أزياء الشتاء القــادم . ويعرضن فى الربيع أزياء الصيف . وكان محل ماجى روف أوفد فتياته

الى سان موريتز فى شهر يناير ليعرضن أزياءه فى حفلة ساهرة أقيمت فى فندق بالاس ، واعتذرت أنا عن عدم حضور الحفلة .

ومن بعده محل لانفان . ثم نينا ريتشى وجان باتو ... وكنت فى كل مرة أعتذر عن عدم مشاهدة الحفلة وأقول اننى لست من هواة الأزياء ...

وكانت مرغريت تقول : ومن الذى يطلب منك أن تعجب بالأزياء أو تبدى رأيك فيها ! .. ان الرجال يحضرون هــذه الحفلات لمشاهدة فتيات الأزياء « المانيكان » ...

وقلت لها مرة : ولكن هذا صيد رخيص ! .

وقالت هى : أهذا رأيك فى فتيات الأزياء ؟ .

قلت : نعم ...

قالت : ولكنهن لسن دائما صيدا رخيصا أيها السيد المغرور ! .

وحاولت الاعتذار هذه المرة عن عدم حضور حفلة كارفن ، ولكن سانتا مرغريتا لم تقبل الاعتذار . وصممت على أن أصحبها وزوجها وأعلنت أنهــا تدعونى لتناول العشاء معهما ! وأن رجــلا مهذبا مثلى لا يرفض دعوة سيدة ! .

وذهبنا الى الحفلة . وكان بين الحاضرين صاحب الجــلالة جوستاف الخامس ملك الســويد ، وقد حضر من نيس خصيصا ليشهد حفــلة عرض الأزياء .

ومحال الأزياء تدقق كثيرا فى اختيار فتياتها . اذ يجب أن تكون كل منهن أنموذجا للجمال ! جمال الجسم . وجمال الوجه . وبهاء الطلعــة . وأناقة المشى والخطى ولفتة الرأس ! .

وقد أوفد كارفن خمس فتيات كل منهن تمثل لونا من ألوان الجمال ...

وبدأ عرض الأزياء . وركزت الأنوار على المسرح المقام فى صدر القاعة الكبرى . وظهرت الفتاة الأولى . وخطت بضع خطوات فوق المسرح ذهابا وايابا . واستدارت . ثم واجهتنا . وبعدها نزلت تتهادى فوق الدرج وتسير فى طريق مرسوم بين الموائد ...

وكانت « خمرية اللون » سوداء الشعر ذات جمال كله أنفة وكبرياء ! .

جميلة ! .. وكانت تعرف أنها جميلة ! ..

وسارت تتهادى ولا تبالى بالنظرات ...

كانت أشبه بشراع ينساب فوق صفحة الماء ...

ولكنى سرعان ما شغلت عنها بالنظر الى صاحب الجلالة ملك السويد .. وكانت المائدة الرئيسية التى يجلس جلالته عند صدرها تواجهنا تماما فى الجانب الآخر من القاعة ...

وخيل الى أن جلالة الشيخ الذى أشرف على التسعين من عمره يغالب النعاس ! فقد كان رأسه يتدلى قليلا فوق صدره ! وكان فمه شبه مفتوح ...

وغلب علىّ فضول الصحفى ! ورحت أرقب ملك السويد ! وشغلت به عن العرض وفتيات الأزياء ...

وفجأة همست مرغريت فى أذنى : أنظر ... أنظر ما أبهاها ! .

ونظرت! .. ولكن « البهاء » لفظ باهت اذا وصفت به فجر الصيف ! .. ولو أن نحاتا أراد أن يصنع تمثالا يصور به فجر الصيف لما وجد أنموذجا ينقل عنه خيرا من هذه الفتاة ...

وجه هادىء مستدير . وجبين يشع منـــه نور ! أو هكذا يخيل للناظرين ! وعينان حالمتان .. تنظران ولا تبصران ... لأنهما مفتوحتان نعم ... ولكن على حلم بعيد ! .

وقد تدلت فوق كتفيها ضفيرتان ... مالون شعرهما ؟ .

ذهب حنت عليه أشعة الشمس ساعة الأصيل ...

وتحيط بالوجه كله أو تعلوه — لا أدرى — مسحة من الهدوء والحزن والاستسلام ...

وقلت : يا الله ... كم هى جميلة ! .

وقالت مرغريت : نعم ... انها رائعة ! .

وقال مارسيل وهو يغمز بعينيه ويبتسم : هل نسعى لمعرفتها ؟ .

قلت : وهذا ما كنت أفكر فيه ...

وقالت مرغريت : ألزم حدك ! ! ان الفتاة صغيرة السن ...

قلت : كم تظنين عمرها ؟ .

قالت : دون العشرين بكل تأكيد ...

قلت : لا أظن ... بل هى فى الثالثة أو الرابعة والعشرين .

ولكنى — كما عرفت بعد — كنت مخطئا فى تقديرى . وكانت مرغريت على صواب ...

هذه الروعة . أو هذا الهدوء الممزوج بالحزن . أو هذا الجلال قد جعل الفتاة تبدو أكبر سنا مما هى ...

وانتهت حفلة عرض الأزياء ... وقلت : ألا ننصرف الآن ؟ .

وقالت مرغريت : كيف نتصرف ! . سيبدأ الرقص الآن . ثم هناك قاعات اللعب وقد يسعدك الحظ وتقابل الفتاة وتتعرف اليها ...

قلت : ولكنني لا أرقص ولا أريد أن ألعب الليلة ...

وقالت اللعينة : والفتاة ؟ . ألا تريد أن تجرب حظك معها ؟ .

وأجبتها وأنا أضحك : كلا ... لقد تبت على يديك ...

* * *

وفى الصباح غادرت الفندق مارا بشارع لامادون الى مكتب البريد لأرسل مقالا الى أخبار اليوم ...

وكنت نسيت الفتــاة . أو على الأصح لم أكن أفكر فيها . وكان المحتمل جدا أن يقف الأمر عند هذا ! وبعد ... ماذا كان هناك ! .

فتاة رأيتها فى سهرة . وأعجبت جدا بها كما أعجب بها سواى ...

فتاة لا أعرفها . ولا أعرف عنها شيئا حتى ولا اسمها ! .

وكم من وجه جميل رأيناه وعشقناه ... ثم سلوناه بعد ساعة ... أو بعد يوم ! .. ونسيناه بعد شهر أوبعد حين ! .

ولكن ما أن سرت فى شارع لامادون حتى بصرت بالفتــاة مقبلة ومعها زميلة لها من فتيات المانيكان ...

وكانت تبدو فى ثوبها البسيط ، وفى ضوء النهار أجمل وأبهى وأروع منها فى ثوب السهرة ، وفى نور الكهرباء ..

وعدت الى الفندق واستدعيت رئيس الخدم «الميتر دوتيل» وسألته أين تقيم فتيات كارفن ؟ .

قال : في فندق الارميتاج الملحق بفندق باريس .

وقلت له : ان بينهن فتاة وصفها كذا وكذا ، وأحب أن أعرف اسمها وعنوانها في باريس ...

ووعدته بعطاء سخي ...

وفي صباح اليوم التالى دخل على الرجل فى غرفتى واعطانى الأسم وقد عرفه من البطاقة الموضوعة على حقيبة الفتاة . أما عنوانها فلم يستطع معرفته . ثم قال ان الفتاة وزميلاتها يغادرن مونت كارلو اليوم عائدات الى باريس بقطار الساعة الثانية بعد الظهر ...

وذهبت الى محل للزهور وطلبت أن يرسلوا صندوقا من الزهور الى صاحبة الاسم بفندق الارميتاج ومع الصندوق هذا الخطاب ...

أما الخطاب الذى أرسلته فكانت ترجمتـه ... «مع كل الاعجاب المنطوى على الاحترام من مصرى لا تعرفينه ولكنه يرجو مع ذلك أن يسعد برؤيتك فى باريس » .

ومع الخطاب بطاقة باسمى ..

وعرفت من بواب الفندق بعد ذلك أن الآنسة تسلمت صندوق الزهور قبل أن تبرح الفندق لتستقل القطار الى باريس .

وسألت الرجل : هل تركت الآنسة رسالة ما ؟ .

قال : لا ...

قلت : هل هى من طبقة الأشراف كما يدل اسمها ..

وابتسم الرجل وقال : هذا ممكن .. ولكن فتيـات الأزياء كثيرا ما يتخذن أسماء مستعارة وأسماء طنانة ..

وكان اسم الفتاة كما قرأه رئيس الخدم على حقيبتها «م.ده.س.س.».

وأكتم اسمها اليوم وأنا أروى قصتها ، لأننى أعتقد — وأرجو من كل قلبي — أنها لا تزال على قيد الحياة ! .

وحان . . الرحيل عن مونت كارلو . وعاد مارسيل ومرغريت الى سويسرا . وسافرت أنا الى باريس . وكنا فى شهر ابريل ...

ومضت أيام وأيام شغلت فيها بعملى وبما يشغل به المرء عادة فى باريس. وفى كل مرة كان طيف فتاة الأزياء الآنسة « م » يطوف بخاطرى كنت أصرف نفسى عن التفكير فيها ...

وكنت كلما اخترقت دوران الشانزلزيه حيث تقوم دار كارفن للأزياء.. رفعت بصرى الى شرفات الدار ونوافذها لعلها واقفة فى احداها ! . ثم أهز رأسى وأمضى فى طريقى وأنا أقول لنفسى : «مجنون .. فتاة فى مثل صباها ! وفى مثل جمالها ونضارتها ! وتعمل «مانيكان» وفى باريس ... هل تحسب أنها «خالية» ... ليس لها «نصير» ولا صديق وانها جالسة وعيناها الحالمتان ... تنتظر فتى أحلامها الذى هو حضرتك أيها المجنون؟! أرسلت لها زهورا ؟ . لابد أنها ضحكت !.. وضحكت زميلاتها عندما قرأن معها خطابك .. لقد تصرفت مثل أى تلميذ حديث العهد بالحياة.. فما هكذا تعامل فتيات باريس ... وخصوصا فتيات المانيكان !. صيد رخيص كنت تقول عنهن ؟! » .

نعم ... كنت أسرع الخطى وأمضى فى طريقى ! وأنا أقــول دع عنك ! ... انها أبهى وأجمل من أن تكون خالية الذمة والعهد ... لابد

فى مونت كارلو ولم تردها اليك .. أليس كذلك ؟ هذه علامة طيبة ! فلماذا لا تعيد الكرة وترسل اليها زهورا وتسألها أن تتناول معك طعام الغداء أو العشاء .. ان سيارتى هنا فى باريس وهى تحت أمرك ! .

* * *

ومضيت الى محل لبيع الزهور واخترت من الزهور أنضرها وأبهاها .. اخترت ثورة من مختلف الألوان وقلت للفتاة بائعة الزهور ...

— سوف تطلبين بالتليفون محل كارفن للأزياء .. وتسألين عن الآنسة « م . ده . س. س. » فاذا ردت عليك تقولين أن عندك لها صندوق زهور وخطابا فهل ترسلينهما الى كارفن أو الى مسكنها .. وما عنوانه ؟ وسوف أمر بعد الظهر لأعرف منك النتيجة ...

ونفحت الفتاة ببعض المال ...

* * *

وقلت لنفسى ان الآنسة « م » اما أن تقول للبائعة انها ترفض الزهور وينتهى الأمر ! واما أن تقبلها ومعها الخطاب ! وفى هذه الحالة سوف تفضل طبعا أن يصل اليها صندوق الزهور والخطاب فى مسكنها .. لا فى محل عملها ! .

أى أنها ستعطى عنوانها لبائعة الزهور ! .

وصدق حسابى لأننى عند ما مررت بعد الظهر ناولتنى البائعة العنوان وهو رقم كذا شارع دى لاسانتيه ...

وقالت انها قد أرسلت صندوق الزهور والخطاب مع رسول خاص !

أن يكون لها صديق ... ثم ... ثم أليست من فتيات المانيكان ؟ ...

ولكن ألا ليتنى عرفت !.. ليتنى كنت أقدمت وعرفت ما عرفت ! .

الى أن كان ذات يوم ، والتقيت مصادفة بصديقى المصرى « ع » .

ومضى الصديق « ع .. » يحدثنى عن تنقلاته هو والسيدة زوجته فى باريس الى أن قال :

— وأمس ذهبت أنا وزوجتى الى محل كارفن لنشترى ثوبا لها وهناك شاهدنا أجمل فتاة ...

وهنا تفتحت أذناى ... وسألته أن يصف الفتاة ...

ولما انتهى من وصفها — وقد عرفتها — قلت اننى رأيتها فى مونت كارلو وقصصت عليه الحكاية كما رويتها هنا ...

— وبعد ذلك ؟ ..

قلت : لا شىء ...

وأمسك الصديق بذراعى يسألنى : تريد أن تقول أنك لم تحاول الاتصال بها بعد عودتك الى باريس ؟ .

قلت : كلا ...

قال : عبيط ... مجنون ...

قلت : بل أنت المجنون ! .

ثم قلت له ما قلته مرارا لنفسى وهو أنه من غير المعقول أن تظل فتاة بمثل هذا الجمال وفى باريس دون أن يكون لها « صديق » ! .

قال : هذا منطق العاجز ! منطق الجبان ... لقد قبلت زهورك

أما الخطاب — وكان مكتوبا على ورق فندق دى كريون حيث كنت أقيم — فكان فيه على ما أذكر أنه يسعدنى جدا أن تلبى دعوتى لتناول الغداء أو العشاء فى أى يوم تحــدده وفى أى مكان تختاره وان لها اذا شاءت أن تصحب معها صديقة أو صديقا زيادة فى الاطمئنان اذ أن كل ما أطمع فيه هو أن تعدنى — فى يوم ما — بين أصدقائها المخلصين ! .

واننى أنتظر ردها على عنوانى بفندق دى كريون ميدان الكونكورد .

وأقمت أنتظر ...

* * *

ومرت ثلاثة أو أربعة أيام لا أذكر ثم دق التليفون فى الصباح وكان يوم الأحد وكنت لا أزال فى الفراش ...

ورفعت سماعة التليفون . وقال صوت ناعم لا أعرفه :

— مسيو محمد التابعى ؟ .

قلت : — نعم .. أنا هو ...

قالت : أنا « م » ..

وبغت لم أكن انتظر أن تكلمنى بالتليفون ولا أعرف لماذا ! بل كنت أعتقد أنها سوف ترد على دعوتى بخطاب ...

قلت فى شىء من الدهشة : — من ؟! .

قالت : م .. م من كارفن .. لقد أرسلت الىّ زهورا ..

وقطعت عليها الحديث وأنا أقول :

— نعم .. نعم .. بكل تأكيد ! بونچور ...

قالت : بونچور ...

ومضت تشكرنى على الزهور وتصف جمالها وسرورها بها ...

قلت : متى أراك ؟ هل تقبلين دعوتى ؟ .

قالت : بسرور ...

وكنت كما قلت قد بغت بتليفونها ! .. كنت أتوقع أن يصلنى منها خطاب ... يحدد موعدا ... أو مكانا ... وتكون عندى فسحة من الوقت ...

بغت وكنت على مواعيد عديدة اليوم — الأحد — وغدا ...

وأخيرا قلت هل أنت مرتبطة بمواعيد ما هذا الأسبوع ؟ .

وخيل الىّ أنها زمت شفتيها قليلا قبل أن تقول : لا أظن ! .

قلت : اذن نتناول العشاء ونمضى السهرة معا يوم السبت ؟ .

قالت : هو كذلك ...

واتفقنا على أن نلتقى الساعة السابعة من مساء السبت فى « بار » فندق دى كريون ...

ثم قالت وهى تضحك : ولكن كيف أعرفك ؟ .

قلت : هذا لا يهم ! سوف أعرفك أنا ! .

قالت : أواثق أنت ؟ ..

قلت : بكل تأكيد ! هل أصفك ؟ .

ضحكت وقالت : افعل ...

وبدأت أصف تقاطيع وجهها .. وعينيها .. وشعرها .. وهى تضحك ! الى أن قالت : يكفى ! أورفوار ...

قلت : أورفوار .. الساعة السابعة .. السبت ..

قالت : نعم ..

* * *

السبت ؟ ! . وكنا كما قلت لا نزال يوم الأحد ... أى أننى أعطيتها موعداً بعد أسبوع ! . اذن علام كانت هذه اللهفة وهذه الزهور ؟ . الفتاة تتحدث بالتليفون فى صباح الأحـد وتقول انها ليست مرتبطة بمواعيد ما .. أى انها كانت مستعدة — أو لعلها كانت تنتظر — أن أدعوها للعشاء اليوم ... أو غدا ...

ولكننى أدعوها بعد .. أسبوع ! ! .

ولكنها المباغتة كما قلت . اذ لم أكن أتوقع أن تحـدثنى بالتليفون أو لعلها ارادة القدر ! .

ومر الأحد والاثنين والثلاثاء ثم انتبهت الى أن بعد غد الخميس هو أول مايو ... عيد الربيع !

وأرسلت اليها صندوقا من الزهور ومعه بطاقة كتبت فيها (تحية الربيع الى التى هى أشبه بقصيدة أبدع فى نظمها ربيع الشباب) .

ثم سألتها هل تستطيع أن تقدم موعدنا ونلتقى فى مساء الخميس ؟ .

وكلمتنى بالتليفون فى صباح الخميس وشكرتنى على صندوق الزهور وقالت انها تأسف وتعتذر عن عدم قبول دعوتى اليوم لأنها تحس تعبا ...

— ولكننا على موعدنا مساء السبت ؟ .

قلت : طبعا .. وسأنتظرك ! .

قالت : سأحضر . الى اللقاء ...

* * *

وفى مساء السبت اخترت مائدة فى بار الفندق وجلست اليها قبل الموعد بنصف ساعة ... وعيناى على باب الدخول ..

وحلت الساعة السابعة .. ساعة « الابراتيف » وقـد ازدحم بار الكريون بزبائنه من الأمريكيين والأمريكيات ..

السابعة والربع ..

السابعة والنصف ..

وكانت عيناى لم تفارقا باب الدخول . ومحال أن تكون م .. دخلت دون أن أراها ...

وأرسلت صبيا من صبيان الفندق يسأل عاملة التليفون هل سأل عنى أحد أو هل تلقت رسالة باسمى من أحد ؟ .

لعلها اعتذرت عن الحضور لسبب ما .. أو لعلها مرضت فجأة ! ولكن كان يمكنها دائما أن تعتذر بالتليفون أو تنيب عنها أحدا فى الاعتذار !.

وعاد الصبى يقول انه ليست هناك رسائل وان أحدا لم يسأل عنى بالتليفون ...

لعلها لم تستطع أن تجد تاكسى فى الوقت المناسب ؟ .

لماذا لم أعرض عليها أن أذهب وأحضرها بنفسى أو أرسل اليها احدى سيارات الفندق ؟ .

الساعة الثامنة .. ثم الثامنة والنصف ...

وقمت الى عاملة التليفون أسألها هل من رسالة باسمى ؟ .

قالت : لا ..

وهنا رجوتها أن تتصل بمطعم مكسيم وتلغى المائدة التى كنت حجزتها باسمى للعشاء ! .

* * *

ومر يومان الأحد والاثنين ولم تتكلم الآنسة م ...

وهززت كتفى واستنزلت اللعنات على صديقى ع الذى كان السبب وقلت لنفسى (مالك ولفتيات المانيكان ! ! . لعلها يوم تحدثت بالتليفون وقبلت الدعوة ... كانت قد اختلفت مع « صديقها » ثم عادت وتصالحت معه .. وتركتك تنتظر فى باز الكريون !) .

ولكننى قررت فى آخر الأمر أن أكتب اليها خطابا — وأن يكون الخطاب جافا الى حد ما — وأن يكون هذا آخر خطاب ! .

وكتبت اليها ما خلاصته ومعناه اننى آسف جدا اذ أزعجها مرة أخرى ولكننى كنت أرجو بعد أن قبلت دعوتى أن تكلف نفسها جهد الاعتذار عن عدم الحضور ولو بالتليفون . واننى أؤكد لها مرة أخرى — اذا كانت أساءت فهم قصـدى — اننى لم أكن أطمع فيما يطمع فيه أمثـالى من مثيلاتها ! .. وأؤكد لها بعد هذا وذلك اننى لن أخدع بعد اليوم بأى وجه مهما علته سحابة من الحزن والهدوء ومهما أطلت منه عينان حالمتان ! .

وكان خطابا قاسيا . خطاب حانق مغيظ ! .

وأرسلت الخطاب الى مسكنها فى شارع دى لاسانتيه .

وبعد أسبوع أو نحو ذلك جاءني منها خطاب .. والخطاب يحمل ختم مكتب بريد سان جان كاب فيرا فى جبال الألب البحرية . وهى قرية تقع فى منتصف الطريق تقريبا بين مونت كارلو ونيس .

وفى الخطاب تقول أن خطابى وصل اليوم فقط — الاثنين ١٢ مايو — محولا عليها من مسكنها فى باريس . وانني أظلمها وان الواقع أنها اضطرت لمغادرة باريس فى اليوم السابق على يوم موعدنا وقد حاولت مرتين عبثا أن تتصل بى بالتليفون فى الفندق .. وانها ستعود الى باريس فى أوائل الشهر القادم (أى يونيه) وسوف تحرص على أن تكرر لى بنفسها أسفها واعتذارها ..

وكان خطابها مكتوبا على ورق مطبوع فى ركنه الأعلى الى اليمين « لاراد » سان جان كاب فيرا . تليفون رقم كذا ...

ولاشك أن « لاراد » هذه اسم بنسيون أو فندق صغير .

* * *

تلوت خطابها وأحسست بالخجل ... عندما تذكرت خطابى وما قلته فيه .

وكتبت اليها أقول انى خجل وانى أعتذر اليها واننى لما كنت أزمعت العودة الى مصر على ظهر الباخرة .. التى تغادر مرسيليا فى يوم ١٥ يونيه فاتنى أفكر فى الذهاب الى مونت كارلو أول يونيه والاقامة فيها الى أن يحين موعد سفر الباخرة . فهل تستطيع الآنسة أن تمد فى اقامتها قليلا حيث هى حتى أحظى بمعرفتها خصوصا وان كاب فيرا لا تبعد كثيرا عن مونت كارلو

أو لعلها تفضـل أن أنتظرها فى باريس حتى تعود . ومتى تعـود على وجه التحديد ؟ .

• ومضت أيام وأيام ثم جاءنى منها خطاب تاريخه ٢٣ مايو ومكتوب على ورق مطبوع فى أعلاه (فيللا كونستانس . مستشفى خاص . ثم رقم التليفون . واسم الطبيبة مديرة المستشفى) .

وتقول فى الخطاب أنها تأسف لتأخيرها فى الرد على خطابى ولكن المرض الذى لم تشر اليه فى خطابها الأول كان قد اشتد عليها جدا حتى انها اضطرت لدخول المستشفى . وان الأطبـاء أوصـوها بضرورة اطـالة اقامتها فى كاب فيرا بعـد مغادرة المستشفى الى أن تستعيد قواها لأنها فى حالة ضعف شديد يستحيل معها عليها أن تعود الى باريس الآن ... وانها ستكون اذن هناك وسوف يسرها أن تلقانى والى اللقاء القريب .

* * *

وغادرت باريس فى يوم الأحد أول يونيه ووصلت الى مونت كارلو عند ظهر الاثنين .

ومن غرفتى بفنـدق باريس طلبت من عاملة التليفون بالفندق أن توصلنى بمستشفى فيللا كونستانس فى نيس .

وسألت عن الآنسة م. ده س. س ؟ .

— لقد غادرت المستشفى منذ خمسة أيام ...

قلت : هل عادت الى كاب فيرا ؟ .

قالوا : على الأرجح .

وطلبت بالتليفون « لاراد » فى كاب فيرا ...

ورد على صوت رجل ...

قلت : هل أستطيع أن أتحدث مع الآنسة م. د. س. س ؟ .

وقال الرجل : من الذى يطلبها ؟ .

وذكرت اسمى ...

وقال الرجل : آه .. ان الآنسة م. سافرت أمس الى بوردو ..

ماذا ! .. سافرت ! .. مرة أخرى ؟ .

ولم أحاول أن أكتم غضبى فقلت بحدة وانفعال : ولماذا سألتنى اذن عن اسمى ما دامت الآنسة ليست موجودة ؟ .

وأجاب الرجل : تكلمنى فى دارى ثم تأبى على حق سؤالك عمن تكون ؟.

وأقفل التليفون ! .

* * *

اذن هكذا ! .. فى مونت كارلو تعود فى نفس اليوم الى باريس ! وفى باريس .. تواعدنى ثم تسافر فى اليوم السابق الى كاب فيرا ! .. فاذا لحقت بها قيل لى انها سافرت أمس الى بوردو ! ..

ولكن من يكون الرجل ؟ و «لاراد» هذه ماذا تكون ؟ بنسيون ... فنـــدق ؟ ...

ان لهجة الرجل لا تدل على أنه صاحب فندق أو صاحب بنسيون ! ثم هو يقول اننى « كلمته فى داره » .

اذن فان «لاراد» هذه اسم لدار خاصة أو لفيللا من تلك الفيللات

المتدة على طول الكورنيش الأعلى تحيط بها حدائق والتى تبدو من فوق قمم الجبال كأنها سلال من الزهر الملون معلقة فى الفضاء ! .

لاراد !.. لم لا يكون عش غرام ؟ ! .

وهززت نفسى كأنما أردتها أن تفيق ! ماذا ! ؟ أغار ... أغار على فتاة لا تعرفنى ولم أر وجهها سوى مرتين ؟ . وبأى حق أغار ؟ ! .

وقلت لنفسى اننى سخيف ! واذا كنت جئت مونت كارلو لكى ألقاها ولم أجدها فان الذنب يقع علىّ وحدى ... واننى مرة أخرى قد تصرفت مثل أى تلميذ ! .

وعاودنى سوء الظن من جديد ومضت ثلاثة أيام .

وأخيرا ولكى يهـدأ بالى قررت أن أقابل الرجـل الذى رد علىّ فى « لاراد » .

وسألته بالتليفون هل يأذن لى بمقابلته ؟ وقال الرجل : تفضل ! ..

ووصف لى « لاراد » وموقعها على وجه التحديد .

وبعد نصف ساعة كنت أمام فيللا أنيقة تطل مباشرة على خليج صغير من تلك الخلجان العديدة التى يمتاز بها جمال شاطىء الكوت دازور .

وصدق ظنى ان «لاراد» دار خاصة ... بل هى عش غرام ! .

وعلى الباب الخارجى لوحة صغيرة من الخشب مكتوب عليها اسم الفيللا «لاراد» وتحته «كونت هـ. ده ج ... » .

وقالت الخادمة التى فتحت لى الباب ان سيدها الكونت ينتظرنى على الشـــرفة .

واستقبلنى شاب... شاب جميل الطلعة.. جميل الجسم مشرق الوجه... وكان بملابس الاستحمام . وقال وهو يصافحنى ويشير الى مقعد أجلس فيه بينما كان هو يتمدد على مقعد طويل :

— معذرة اذا استقبلتك هكذا ... فأنا كما ترانى آخذ حمام شمس .

هذا وهو ينظر الىّ ويبتسم ...

وأحسست أنه يعرفنى ... يعرف اسمى ومن أكون ! فقد كان فى نظرته وابتسامته شىء ما ... شىء يقول .. (اذن فهذا هو أنت) ! .

الى أن قال — وقد قام يشعل لى سيجارة :

— وهل أستطيع أن أعرف لأى سبب أنا مدين بسرور زيارتك ؟ .

قلت : أود أولا أن أعتذر عن لهجتى يوم كلمتك بالتليفون ..

وأزاح هذا الاعتذار باشارة من يده وقال :

— هذه مسألة انتهينا منها . وأنا أعذرك لأنى أفهم .. بل لقد كنت على وشك أن أسأل عنك فى الفندق وأدعوك لزيارتى ..

ولما رأى دهشتى قال : — ان م. حدثتنى عنك .. وقد قالت لى أنها تنتظر زيارتك لها ... ولكنها سافرت .

قلت : وهذا ما جئت لأجله ...

قال : تفضل وسلنى عما تريد ! .

* * *

وهنا شعرت بالحرج ... من أنا بالنسبة لهذه الفتاة ! لا شىء !... بأى حق اذن أسأل عنها أو عن علاقتها بهذا الشاب — وهذا ما كان فى خاطرى ساعة قررت أن أقابله ؟ .

لا حق لى فى السؤال ! .

وأخيرا قلت ولعل صوتى كان يبدو فيه الحياء والحيرة والارتباك معا !.

– أود أن تحدثنى عن مرضها ولماذا سافرت فجأة ... ان خطابها الأخير الى لم يذكر شيئا عن سفرها الى بوردو ...

قال وهو يعتدل فى جلسته ويوجه الى نظرة صريحة ...

– أحب أن أقول لك أولا – وقد يدهشك لماذا أقول لك هذا – اننى صديق لأسرة م. ولها ، ثم أنا أعرف زوجها ...

قلت : الآنسة م.. متزوجة ؟ .

قال : كانت متزوجة .. وقد حصلت على الطلاق منذ شهر واحد ..

ثم مضى يقول ان م... من أسرة طيبة فى بوردو . أسرة قديمة محافظة . وان أباها أرسلها بعد وفاة أمها – وكانت م ... لا تزال فى دور الرضاع – أرسلها الى أحد الأديرة حيث نشأت وتلقت دروسها ولم تخرج من الدير الا فى شهر التحرير – أغسطس ١٩٤٤ – وكانت م ... يومئذ فى السادسة عشرة من عمرها وعادت م... الى دار أبيها فى بوردو . وان هى الا أسابيع قليلة حتى تعرفت بشاب من أهل البلدة كان له دور كبير فى حركة المقاومة السرية وكان معدودا بين سكان بوردو بطلا من الأبطال ... وكان يشتغل ممثلا فى احدى الفرق التمثيلية الثانوية جدا .. الفرق التى تطوف بمدن الريف . وأحبته م... وتقدم الفتى يخطبها من أبيها ... وثار أبوها وهو كما قلت لك ابن أسرة قديمة من المحافظين ... ولكن م ... صممت على الزواج من الشاب .. ولقد كانت م ...

منذ طفولتها الأولى خيالية جدا وعاطفية جدا الى أبعد حدود العاطفة . ثم نشأتها فى الدير بعيدا عن أبيها ... وعن الحياة وما فى الحياة .. كل هذا زاد فى خيالها وفى عاطفتها وفى سذاجتها ...

وهنا قلت : انها دائما فى حلم بعيد ! .

قال : أصبت . هى تعيش دائما فى الأحلام ... وأنا أروى لك قصتها لأنى أعلم انه يسرها أن تعرف الحقيقة عنها ...

حنيت رأسى وقلت : شكرا . يهمنى طبعا أن أعرف عنها كل شىء .

وابتسم وقال : اننى أروى لك جانبا من قصتها ... وقد تروى لك هى الباقي اذا التقيتما فى يوم ما ...

واستأنف الحديث فقال :

— وتزوجت م ... من الشاب . وأعلنها أبوها أنه أقفل باب داره فى وجهها الى الأبد .

وسكت قليلا ثم قال وهو يهز كتفيه :

— وكانت قصتها بعد ذلك من النوع المألوف ... قصة الزواج الذى خاب ... الغرام الطائش الذى سرعان ما تبدد دخانا وأوهاما . حياة الضنك والبؤس والشجار المستمر ... وأخيرا تركت م ... زوجها وسافرت الى باريس تبحث عن عمل تعيش منه ولم يكن قد مضى على زواجها عامان . ولكن أى عمل تستطيع أن تجده فى باريس فتاة نشأت مثلها فى دير ... وأخيرا وبعد أن باعت آخر حلية من حليها القليلة التافهة القيمة اضطرت أن تشتغل « مانيكان » ... ولكن م .. ومعذرة اذا

قلت أنك لا تعرفها جيدا ... م ... لم تخلق لهـذه الحياة ! حياة « المانيكان » ... ان التى تشتغل مانيكان يجب أن تنفق فى الشهر الواحد على ملبسها وزينتها ما لا يقل عن مائة ألف فرنك ! صحيح أن دور الأزياء تبيع الثياب لفتياتها بربع الثمن أى أن ثوب السهرة مثلا الذى يبـاع بمائة وخمسين ألف فرنك يباع لفتيات المحل بأربعين ألفا ... وهكذا . ثم هناك الأحذية وحقائب اليد والقبعات والمناديل المزركشة و .. و .. الى آخر ما هنالك من زينة المانيكان .. والمرتب المتوسط الذى يدفع شهريا للمانيكان وهو بين عشرين وثلاثين ألف فرنك .... وعلى الفتاة أن تجد الفرق بين مرتبها وبين جملة نفقاتها ... وأنت تفهم أين تجده ! ولكن م... لم تكن من هذا النوع .. ولقد ذهبت الى حفلة عرض الأزياء فى نادى سبورتنج ، وكم كانت دهشتى عند ما رأيت م ... فقد كانت أخبارها قد انقطعت عنى منذ زواجها بل لم أكن أعلم أنها تركت زوجها . وقد قابلتها فى السهرة وقصت على ما وقع لها منذ زواجها . وأذكر أنها قالت انهم يدفعون لها شهريا فى كارفن عشرين ألف فرنك وينتظرون منها أن تنفق على زينتها وحـدها مائة ألف ! وسألتنى عما اذا كنت أستطيع أن أجد لها عملا آخر فى باريس فى مكتب احدى الشركات أو أحد البنوك ... وأعطتنى عنوانها فى باريس . ووعدتها أنا بأنى سأبذل جهدى فى البحث لها عن عمل آخر . ولكن الصعوبة كما ترى هى أن الدراسة التى تلقتها م ... فى الدير لا تؤهلها لأى عمل ما من أعمال الشركات والبنوك ... أليس من السخرية المرة حقا أن دراسة الدير لا تؤهل صاحبتها الا للعمل فى المسارح أو فى دور الأزياء !؟ .

وتوقف فى حديثه ليشعل سيجارة ... ثم استأنف الحديث :

— وفى أواخر شهر ابريل سافرت الى بروكسل . وفى طريق العودة نزلت فى باريس لأمضى فيها يومين من أجل عمل لى وذهبت أزور م ... فوجدتها تقيم فى شقة من غرفتين . شقة صغيرة لا تدخلها الشمس ولا يدخلها نور النهار .. وكانت م ... مريضة ...

وهنا قلت : مريضة ؟ . مريضة وهى فى باريس ؟ لقد كلمتنى بالتليفون مرتين ولم تذكر لى شيئا عن مرضها ...

قال : طبعا لم تذكر لك شيئا ..! .

ثم سكت قليلا وهو ينفث دخان سيجارته وينظر الى زوارق الصيد الصغيرة القادمة من عرض البحر الى مدخل الخليج الصغير ...

وقال : لم تكن م ... تشكو من مرض معين تعرفه ... ولكنها كانت فى منتهى الضعف ... كانت خائرة القوى طريحة فى فراشها ...

سألته : هل تذكر متى كان ذلك ؟ .

قال : ستعرف ...

ثم استمر يقول ...

— وبينما أنا أتحدث اليها جاء رسول يحمل صندوقا كبيرا مملوءا بمختلف الزهور . وأنا الذى تسلمت الصندوق ووضعته أمامها وناولتها الرسالة التى جاءت معه ..

قلت : كانت الرسالة منى ..

قال : نعم . وأخبرتنى م ... برسالتك الأولى لها وبالزهور التى

أهديتها اياها وبدعوتك للعشاء . واعترف لك انني مازحتها فى شأنك وسألتها ترى هل يكون هذا المصرى حبيبك المجهول ! وابتسمت هى وقالت انها لم تركـ بعد ... وانك رأيتها مرة واحدة أثناء عرض الأزياء فى مونت كارلو ...

قلت وأنا أشد ابتسامة الى شفتى ...

— ومرة أخرى فى الطريق ...

قال : ربما ... (ثم مضى يقول) ولما هممت أن أخرج الزهور من الصندوق لكى أضعها فى آنية على المائدة أشارت بيدها أن لا أفعل وقالت انه من الخير أن تبقى الزهور فى صندوقها ...

وسكت هنا ! ولما سألته :

— لماذا تبقى الزهور فى صندوقها ؟ .

تردد قليلا ثم قال ...

— آه ... لماذا ! .. بودى لو أستطيع أن أقول لك ... ولكن هذا سرها ! ..

ورمى سيجارته فى مياه الخليج والتفت الىّ واستأنف حديثه :

— وكان على أن أغادر باريس بعد يوم واحد ولما مررت عليها فى اليوم التالى وجدت أنها قد أعدت حقيبتها وقرّرت السفر معى .. ولقد سبق أن قلت لك أن لاشىء بيننا . بينى وبين م ... ولكنها رجتنى .. توسلت الى أن آخذها معى .. لأنها كانت استنزفت آخر قطرة من قواها .. أو من مقاومتها ان شئت .. وكانت خائفة .. خائفة من نفسها ومن

الناس ومن باريس ... وعلى كل حال لم نكد نصل الى هنا حتى كانت الحمى تسرى فى جسمها ...

وسكت لحظة ثم قال ...

— والباقى تعرفه ... ولقد قال الأطباء أن العلة فى صدرها . وفى قلبها .. وان حالتها جـد خطيرة وعلاجها لابد أن يطول .. وكنت قد اتصلت بأبيها الشيخ فى بوردو . وقد حضر وأخرجها من المستشفى وأقام الاثنان هنا معى بضعة أيام حتى استردت م ... قليلا من قواها ثم سافرت مع أبيها الى بوردو ... هذا كل ما هنالك ...

ونهضت واقفا ومددت يدى أستأذن فى الانصراف وأشكره ...

وقال : اننى أسأل عنها أحيانا بالتليفون وسوف أقول لها انك جئت مونت كارلو كما وعدتها . وانك سألت عنها وزرتنى . واننا تحدثنا عنها طويلا ... هل تود أن أعطيك عنوانها فى بوردو لتكتب اليها ؟ .

قلت : نعم وشكرا ...

وأملانى العنوان ... شارع رتايون رقم ...

* * *

أكتب اليها أو لا أكتب ؟ سؤال ظل يتردد فى خاطرى . أكتب أو لا أكتب ! .

ولكن لماذا أكتب ؟ ما الذى أرجوه ؟ وما الذى تفيده هى من كتابتى ؟

انها مريضة وهى الآن فى عناية أبيها ... وأنا غريب .. أجنبى بل هى لم تر وجهى .. ولو قابلتنى أو دخلت عليها لما عرفتنى ! .

ولم أكتب ! ولكنى أعترف أن م ... كانت دائما فى خاطرى ..

واعترف كذلك — وقد أخجل من هذا الاعتراف — انني كنت أسأل نفسي هل كان هذا الشاب الجميل هـ. ده ج ... صادقا فى روايته ؟ .

أو أنه كان سيدا مهذبا أراد أن يحمى سمعة فتاة فلم يقص على كل الحقيقة ؟ ! .

ثم أعـود واهز رأسي بعنف كأنما أريد أن أقصى عنـه م ... والتفكير فى م ...

وكان قد مضى على زيارتى لصاحب (فيللا لاراد) أسبوع أو نحو ذلك ... وذات صباح جاءنى من م ... خطاب من بوردو ...

وفى خطابها تقول ، أنها عرفت من هكتور (هكتور ده ج ...) اننى حفظت كلمتى لها وجئت مونت كارلو لأراها . واننى زرته لأسأل عنها وعن مرضها . وانها تشكرنى .. الى أن قالت (كم كنت أود أن تزورنى فى بوردو فأنا أعرفك وان كنت لم أرك . ولكننى أذكر أنك قلت فى أحد خطاباتك أنك تغادر مرسيليا عائدا الى مصر فى ١٥ يونيه . وهكذا لن يتسع وقتك . وانى أشكرك مرة ثانية وأتمنى لك سفرا سعيدا) .

ثم استدركت فى نهاية الصفحة من خطابها وأضافت هذه العبارة ...

(فى كل مرة سعيت فيها لمقابلتى كان شيء ما يقع ويقصينى ويحول دون مقابلتنا . ولكن اذا حضرت الى بوردو فانك ستقابلنى حتما لأنى طريحة الفراش) ! .

* * *

أسافر الى بوردو ؟ . هذا جنون ! .

وكنا فى يوم ١١ أو ١٢ يونيه لا أذكر ... والباخرة تغادر مرسيليا يوم ١٥ ..

وفوق هذا كان هناك اضراب عام فى سكك حديد فرنسا . وكان كل همى يومها هو أن أجد سيارة تحملنى وحقائبى من مونت كارلو الى مرسيليا بأجر معقول .

ولحسن الحظ ، انتهى الاضراب وغادرت مونت كارلو بالقطار الى مرسيليا ...

ولكن ما أن وصلت الى مرسيليا حتى عرفت من قنصلية مصر أن الباخرة أجلت سفرها الى يوم ١٩ بسبب اضراب السكك الحديدية ولأن عددا كبيرا من المسافرين على ظهر هذه الباخرة لم يتمكنوا بعد من الوصول الى مرسيليا بسبب هذا الاضراب الذى استمر عشرة أيام .

وبقيت فى مرسيليا ... وأنا أكره مرسيليا ...

هل أذهب اليها فى بوردو ؟ .

اذهب ؟ .. لا أذهب ! ..

« الباخرة تبحر يوم ١٩ ... وتستطيع أن تسافر بقطار الليل وتزورها غدا وتعود من بوردو بقطار الليل وتصل فى الصباح قبل سفر الباخرة » ..

ولكن هذا جنون ! ..

اذهب ؟ .. اذهب ؟ .. كلا ! .

وحل يوم السفر . وذهبت بحقائبى الى السفينة ... وبينما أنا أصعد السلم رأيت نعشا يدخلونه من أحد أبواب عنابر السفينة ... وتشاءمت !.

ووضعت حقائبي فى « الكابين » ومشيت أتجول فى قاعات السفينة ... وقابلت بعض الطلبة المصريين العائدين الى مصر لتمضية أجازة الصيف بين أهليهم .

وعرفت من أحدهم أن الباخرة تنتظر وصول قطار خاص يقل بضع مئات من المهاجرين اليهود الذاهبين الى حيفا وقد يصل القطار فى الوقت المناسب ... وقد لا يصل .

وماذا اذا لم يصل ؟ .

قالوا : تؤجل الباخرة سفرها الى أن يصل القطار ...

وكان الحر شديدا والباخرة واقفة . وجوها كئيبا . والنعش الذى رأيته ... وكنت منقبض الصدر ! .

ومن تحت هذا كله .. « بوردو .. بوردو .. انها مريضة ... وهى تود أن تراك » ...

اذهب الى بوردو ! ! اذهب الى بوردو ! ! ..

وتناولت طعام الغداء فى الباخرة . وأويت الى حجرتى أستريح .. ولكن ...

دائما بوردو ... بوردو ... وأخيرا خرجت أتمشى ...

— هل سمعت آخر خبر ؟ .

وكان السائل أحد الطلبة المصريين ...

قلت : كلا ...

قال : ان فى الباخرة خمس غلايات .. وبعضها كان عاطلا عن العمل

منذ مدة ... وقد انكسرت غلاية أخرى وهم يصلحونها الان ...

قلت : اذن لن نسافر اليوم ؟ .

قال : كلا ... وقطار المهاجرين اليهود لم يصل بعد ...

وفجأة حزمت أمري وقلت له ...

— اسمع ! أترك لك غرفتى فى الباخرة ومعها الحقائب ... وسيقابلك شقيقى فى ميناء الاسكندرية ليتسلم منك الحقائب ...

دهش الفتى وقال : ولكن ... وأنت ؟ .

قلت : لن أسافر على هذه الباخرة ! انى متشائم منها ...

وقبل الفتى ما عرضته وقد سره طبعا أن يحتل غرفة فى الدرجة الأولى بدلا من أن يشترك مع اثنين فى حجرة واحدة بالدرجة الثانية .

ولكن صعوبة قامت . كيف أغادر الباخرة وأدخل «الأرض الفرنسية» وقد أشرت سلطات الميناء على جواز سفرى بالخروج ؟ أنا فى حكم القانون قد خرجت من فرنسا ! ولابد من « فيزا » بالدخول قبل أن يؤذن لى بمغادرة الباخرة ! .

وقلت لقوميسير الباخرة : اننى لا ألح فى مغادرة الباخرة . ولكنى أردت فقط أن أحتاط للأمر ...

وسألنى الرجل : تحتاط لأى أمر ؟ .

قلت : اننى أشكو من المصران الأعور ! وأحس الآن بوادر أزمة ... ولكن لعل طبيب الباخرة اذا وقع ما أخشاه واشتدت الأزمة ... لعله يستطيع أن يجرى لى العملية اللازمة ؟ .

وفزع الرجل ... وأسرع يعدو وينادى ضابط بوليس الميناء وكان لم يغادر الباخرة بعد ... لحسن الحظ ! .

وتشاور الرجلان . وقال ضابط بوليس الميناء ان السماح لى بمغادرة الباخرة اجراء شاذ ... بل هو ضد القانون ... ولكنها بسبب مرضى حالة استثنائية ...

وتناول جواز سفري. وألغى تأشيرة الخروج ...

ونزلت من الباخرة وبيدى حقيبتان صغيرتان كنت أعـددت فيهما الملابس التي سأستعملها على ظهر الباخرة ...

وأما بقية حقائبي فقد تركتها مع الطالب المصرى ...

وأمضيت فى مرسيليا يوما وبعض يوم لأدبر حاجتى من المال فقـد كنت أنفقت ما معى من الفرنكات الفرنسية قبل الصعود الى الباخرة .

* * *

ثم سافرت الى بوردو ...

وذهبت الى الدار رقم ... شارع رتايون ...

— الآنسة م. ده س. س ؟ .

— انها فى المستشفى.منذ يومين ... نعم لقد ساءت حالتها ونصح الأطباء بدخولها المستشفى ! .

ولم أدهش هذه المرة ! ولم أغضب ولم أنفعل ! ولكن ... مع ذلك أهو القدر ؟ ما من مرة أسعى اليها الا وشىء ما يقع .. ويقصيها ؟ .

ولكنها هذه المرة لم تذهب بعيدا ... انها فى نفس المدينـة ... فى المستشفى .. اللهم الا .. وسرت قشعريرة فى ! ..

لقد قالت فى خطابها انها طريحة الفراش واننى سأقابلها حتما ولا شىء هذه المرة يحول دون مقابلتنا ...

لا شىء ؟ .. شىء واحد فقط قد يحول ! .

وفى طريقى الى المستشفى ابتعت طاقة من الزهور ! .

* * *

— هل أستطيع أن أرى الآنسة م. ده س. س ؟ .

وقالت الممرضة : انتظر قليلا من فضلك حتى أرى ... ان الآنسة م.. متعبة جدا كما تعرف ... أى اسم ؟ .

وذكرت اسمى .

وعادت الممرضة بعد دقائق تقول : اتبعنى من فضلك ..

وأمام باب احدى الحجرات وقفت وقالت همسا ...

— أرجوك ... لا تطل زيارتك لأن المريضة متعبة جدا ...

ثم فتحت الباب .. ووقفت جانبا حتى دخلت ...

وأغلقت ورائى الباب بهدوء .

* * *

وتقدمت من الفراش ... وكان بجوار باب شرفة صغيرة تطل على حديقة المستشفى ...

ورفعت م ... الىّ عينيها الواسعتين اللتين لم تعودا تطلان على حلم بعيد ! .

كلا لم يكن فيهما حلم بعيد ... كان فيهما شىء آخر أو معنى آخر ! .

اختفى الحزن منهما ولم يبق فيهما سوى الهدوء والاستسلام شأن من نسى الدنيا وأحلامها .. وآنس الى النهاية ينتظرها فى صبر جميل ! .

أما جبينها من فوق وجهها الشاحب فكان كما عرفته ! يشع منه نور ! نعم ! النور كان هناك ! ولم يكن اذن خدعة من مصابيح الكهرباء فى حفلة عرض الأزياء ...

وفوق الوسادة تهدل شعرها الذهبى الذى حنت عليه أشعة الشمس ساعة الأصيل ...

وفى خديها جمرتان تحترقان ! علامة الداء الوبيل ! .

وقالت بصوت ضعيف : هذا أنت ... أجلس ...

وأشارت أن أقترب بالكرسى من فراشها ...

— حتى تستطيع أن تسمعنى ؟ .

ووضعت طاقة الزهور الى جانبها فوق الفراش ...

وراحت أصابعها النحيلة تتحسس الزهور ... الى أن قالت :

— أبلغنى هيكتور أنك زرته وأنكما تحدثتما عنى ... وأنا لا أعرف ماذا قال لك وما اذا كان قال لك كل شىء ... ولقد تمنيت أن تزورنى وها أنت حققت رجائى ... شكرا ... شكرا ... ولكن الباخرة ... ماذا فعلت ؟ .

وكانت تتكلم بصوت ضعيف هادىء ... متقطع ...

قلت : سأبحث عن باخرة أخرى ...

ورنت الى بعينيها الواسعتين الصافيتين وفيهما ... فيهما ماذا ؟ .

فيهما مزيج من حنان وشفقة ثم قالت : آتعبتك ... ولكنى أحببت أن تزورنى لكى تعرف الحقيقة ! وأنا أعرف انه سوف يسعدك ... أو لعل كلمة « تسعدك » أكثر مما يجب ... فلنقل اذن سوف يريحك كثيرا أن تعرف الحقيقة ، وأن التى ... عطفت عليها كانت جديرة بكل هذا العطف ...

وسكتت لحظة تستريح ثم قالت ...

— ان خطابك الذى جاءنى من باريس ... آلمنى كثيرا ...

وهممت أن أعتذر ولكنها أشارت الى بيدها أن أسكت ...

واستمرت تقول ... آلمنى لأنه منك ... لقد كنت ظريفا مؤدبا معى ... وكانت دعوتك لى دعوة سيد مهذب ... ولما كلمتك أول مرة بالتليفون آنست الى صوتك ... بعض الأصوات تأنس الى أصحابها قبل أن نلقــاهم ونعرفهم ... وثقت منك . وكان فى نيتى أن أحضر فى موعدك ... ولكن ...

وأمسكت ... وكانت أنفاسها تتردد وتتدافع ...

وقلت أنا : أرجوك . لا تتعبى نفسك . ان مسيو ده ج ... قص على كل شىء . وكيف أنك كنت مريضة ...

قالت : هل قص عليك سبب سفرى معه ؟ .

قلت : أذكر أنه قال انك كنت متعبة ... وكنت خائفة من شىء ما ...

قالت : نعم ... كنت خائفة ... خائفة من نفسى ... ومنك .. ومن جميع الناس ...

قلت : خائفة منى أنا ؟ ..

قالت : لا تسيء فهمى ... واصفح عنى ... اذا لم تكن أنت فقد كان هناك سواك ...

وبدت حيرتى فى عينى ورأت هى اننى لم أفهم شيئا ...

ومضت تقول : ان هكتور لم يذكر لك شيئا عن مرضى ! .. سبب المرض ! ... انه الجوع ... الجوع ! هل فهمت ؟ .. كنت أجوع .. مرضت من قلة الطعام ... من سوء التغذية ... من تفاهة ما كنت آكله ... شهورا طويلة لم أذق فيها مرة طعاما وأشبع ...

وسمعت نفسى أقول :

— أنت ! .. كنت تجوعين ! .. تجوعين فى باريس ؟ .

وأنا الذى كنت أرسل لها زهورا ! .

قالت : نعم ... كنت جائعة ... دائما جائعة ... انك لم تعرف الجوع ! . يوم كلمتك لأول مرة كنت مستعدة لأن ألبى دعوتك فى نفس اليوم ... لأنى كنت لم أذق طعاما منذ يومين ...

ومسحت جبينى المبلل بيدى ...

وابتسمت هى وقالت : ولكنك لم تدعنى ... وأرسلت لى بعدها صندوقا مملوءا بالزهور ... كم دفعت فى هذه الزهور ؟ .

ولم أجب ...

وقالت : لقد أرسلتها الى محل لبيع الزهور بالقرب من مسكنى ... بعتها ... وأرسل الى ثلثمائة فرنك ... ربما ربع أو خمس الثمن الذى كنت دفعته فيها ؟ .

ثم قالت : نعم ... بعتها ... لكى اشترى طعاما ... لآكل ... وسكتت ...

تجوع فى باريس ؟ .. هى ... تجوع ؟ .. فى مثل جمالها وصباها وفى باريس ... وتجوع ؟ .

وتذكرت قول هكتور ده ج ... (لقد كانت م ... منذ طفولتها خيالية عاطفية الى أبعد حدود العاطفية والخيال) .

وعادت تقول : هل فهمت الآن لماذا كنت خائفة ... كنت خائفة من الجوع ... وانت لم تعرف الجوع ... كنت خائفة أن تنهار قواى .. كنت خائفة اذا قابلتك أن ... أن أدفع الثمن ! .

وانحنيت وأمسكت بيدها بين يدى ... وترددت الألفاظ فى فمى ! .

وقالت هى : انت ... أو سواك ... كنت خائفة من الجوع ومن نفسى ... ثم جاءنى خطابك ... وتألمت من أجلك .. نعم من أجلك .. أحسست انك تعتقد أنك خدعت فى .. وهذا آلمنى ... ولكن ألمى من أجلك كان أشد ... فقد أدركت من خطابك أنك كنت تحسن الظن بى كثيرا ... لهذا أحببت أن تعرف أنك لم تخدع ... وانى كنت جديرة بعطفك ... وحسن ظنك ... هل استرحت الآن ؟ هل أسعدتك ؟ .

وانحنيت فوق يدها ألثمها وأقول ...

— ليتنى ... ليتنى كنت عرفت ...

ووضعت يدها فوق رأسى وقالت :

— نعم ... وماذا كنت تفعل ؟ .

قلت والرحمة تغمر قلبي : كنت سعيت اليك وحملتك بين ذراعي وأجلستك فوق ركبتي وأطعمتك بيدى ...

ومشت أصابع يدها فى شعرى وهى تقول ...

— انى لم أر أمى ... ولكنك تتكلم مثل أم ... ما أرق حنانك ! .

وأغمضت عينيها ... وانحدرت من بين أهدابها دمعة على خدها ...

ودخلت الممرضة تقول ان موعد الزيارة قد انتهى ...

وانحنيت فوق نم ... لحظة ... ورفعت الى عينيها ...

وقالت عيناها قبلنى ! .

ولثمت جبينها . وأحسست أن رعشة خفيفة سرت فيها ...

فقد سالت من عينى فوق جبينها دمعة كبيرة ! .

هنى شولنبرج

كانت - مثلي - تحب بلا أمل . . .

إن فى صدرى يا بحر لأسراراً عجابا
نزل الستر عليها وأنا كنت الحجابا
وبها ازداد بعداً كلما ازددت اقترابا
وأرانى كلما أوشكت أدرى لستُ أدرى!

(ايليا ابو ماضى)

هنى شـــولنبرج

كان مساء احد أيام شهر ابريل وكنا فى قهوة (الدوم) الشهيرة فى مونبارناس وهى القهوة التى يحج اليها كل غريب يزور باريس . بل لعل الغريب الزائر قد يضيق وقته عن زيارة متحف اللوفر أو حدائق فرساى . ولكننى لا أعرف ولم أسمع عن غريب زار باريس ولم يزر قهـوة الدوم وجارتها (الكوبول) .

وكنت جالسا عند مدخل القهوة ومعى صديقى طلعت — أحد موظفى القنصلية المصرية بباريس فى ذلك الوقت .

ومر من أمامنا كارلو ...

وكارلو فتى رومانى الأصل وهو من « الحثالة » التى تقذف بها كل أمة الى خارج حدودها فتأوى الى باريس !... باريس المضيافة الواسـعة الصدر المفتوحة الذراعين لكل غريب .

وكارلو يعيش من لا شيء وبكل شيء . وكل وسيلة عنده مشروعة وكل صيد حلال. فهو الواسطة بين موزعى الكوكايين ... وبين المدمنين من رواد حانات مونبارناس بل هو يتجر بما هو شر من الكوكايين .

ولعل كل نصيبه من الرجولة أنه من فصيلة الذكور ! .

ورآنى كارلو فأقبل يحيي ويقول انه لم يذق شرابا منذ أمس فهل أسمح له بقدح من «البرنو» ! .

ولما لم أكن حريصـــا على أن يجلس كارلو الى مائدتى أو يراه أحد فى صحبتى فقـــد وضعت يدى فى جيبى أبحث عن قطعة نقود أنفحه بهـــا وأصرفه ... وهنا أقبلت فتاة من داخل القهوة ، تريد الخروج ...

وتعلقت عيناى بالفتاة ...

هذه الفتاة لم أرها من قبل . وأنا أستطيع أن أهنىء نفسى — ان كان فى الأمر ما يستحق التهنئة — على أننى أحفظ عن ظهر قلب أسماء ووجوه الفتيات اللاتى كن يترددن على قهوة الدوم ! .

هذا والفتاة مقبلة نحونا . وكنا جلوسا على مقربة من باب الخروج .

وكارلو الذى يقرأ الوجوه ويحل أسرارها لم تفته هذه الحركة منى ..

والتفت وراءه ورأى الفتاة — وقد حدث هذا كله فى ثوان معدودة وقال :

— هل تريد أن تتعرف بها ؟ .

وكانت الفتاة قد أصبحت على قيد خطوة منا ...

وقبل أن أجيب بنعم أو لا ، مد كارلو يده وجذب الفتاة بشىء من الخشونة وهو يقول بابتسامة تغثى لها النفس هى ابتسامة ابن المهنة العريق! .

— لم هذه العجلة ؟ .

وتوقفت الفتاة عن السير وقد علا وجهها احمرار الغضب وقالت :

— كيف تجسر ! . أنا لا أعرفك .. بل أعرفك جيدا ! .. بالسمعة ! .

قالت هذه العبارة الأخيرة بلهجة محال أن لا يحمر لها وجه أى رجل ! .

ولكن كارلو كما قلت حثالة قذرة لو رآها الخالق لأنكر ما خلق ! .

قال : حسن جدا ! ما دمت تعرفيننى جيدا – بالسمعة كما تقولين – فقد أصبح الأمر أسهل مما كنت أظن ... هذا السيد (وأشار الىّ) يريد أن يتعرف بك ...

والتفتت الىّ الفتاة تقول فى سخرية لاذعة :

– أهذه طريقتك فى التعرف الى الفتيات ؟ .

وكنت أنا قد وثبت أريد التدخل ووضع حد لهذا المشهد الذى لم أرده والذى أوشك ان يلفت الينا أنظار الجالسين حولنا ! .

قلت لها : صدقينى يا آنسة انها ليست طريقتى . وأنا لم أطلب من كارلو أن يعرفنى بك .. وأنا برىء من هذا كله .. ولقد كنت على وشك أن أتدخل وأطلب من هذا الرجل أن يتركك وشأنك ... صدقينى أننى آسف جدا ...

وقال صديقى طلعت باللغة العربية : يعنى مش عايز تتعرف بها ؟ .

فاستدركت وقلت لها :

– حقيقة يسرنى جدا أن أسعد بمعرفتك ولكن ليس بهذه الطريقة ! هل تتفضلين وتتناولين شيئا ما معنا ؟ .

وكانت يدى قد خرجت من جيبى وناولت كارلو قطعة من ذات العشرين فرنكا ... وانحنى هو باستهزاء أمام الفتاة محييا يريد الانصراف وهو يقول :

– على كل حال سوف نعرف بعضنا بعد اليوم ! ! .

* * *

قالت الفتاة ونحن نفسح لها مكانا بيننا :

— أظن أنه يحسن بى أن أقبل الدعوة ما دمت قد دفعت ثمن معرفتى ا. ولكنى لا أستطيع أن أمكث معك أكثر من دقائق لأنى على موعد مع صديق ! كلا ! لا أشرب شيئا الآن ... قهوة باللبن فقط ان سمحت ..

قلت : صدقينى مرة أخرى ... اننى لم أطلب معرفتك عن طريق كارلو . ثم أنا أعرف هذا الرجل وأعرف مهنته وكيف يعيش ولكنى عمرى ما استخدمته أو جعلت منه وسيلة الى التعرف بأحد ... وأنا لم أدفع ثمن معرفتك كما تقولين وهذه النقود التى رأيتنى أناوله اياها كنت على وشك أن أنفحه بها قبل قدومك فهل تصدقيننى .. أرجوك ! .

ابتسمت عيناها وقالت :

— أظن أنه خيرلى أن أصدقك ... ما اسمك ؟ .

قدمت لها نفسى وصديقى طلعت ...

وقالت هى : وأنا اسمى هنى ... هنى شولنبرج .

وهكذا عرفت هنى شولنبرج ... أو على الأصح هنى فون شولنبرج ابنة أخ الكونت فون شولنبرج آخر سفير لألمانيا فى موسكو (عام ١٩٤٠).

... ...

وكانت هنى يومئذ فى التاسعة عشرة من عمرها .

جميلة ؟ .. فوق ذلك ! وبعد فليس جمال الوجه هو كل شىء .

وسحر هنى هل كان فى الحيوية الفياضة المتدفقة من عينيها الخضراوين ؟ أم كان فى لفتة رأسها ؟ أم كان فى شعرها الأسود الفاحم كظلمة ليل

بلا نجوم ؟ أم فى بشرتها البيضاء الناصعة الناعمة ؟ .. أم كان — وهنا العجب والطرب — فى اجتماع سواد الشعر والحاجبين من فوق العيون الخضراء ؟ ..

اسود وأخضر على رقعة ناصعة البياض ! ! .

وعيونها هل كانت حقيقة خضراء ؟ .

فى لحظات الحنو والحنين كانت تمشى فى عيونها زرقة بنفسجية اشبه بلون مياه المحيط العميق الأغوار ! .

وفوق هذا كله « قوة » تنطق بها تقاسيم الوجه و « شخصية » محال أن لا تفرض وجودها عليك . وأنف مستقيم من تحته ذقن ممتلىء أنفة وعزة واباء .

وقامت هنى الى موعدها بعد أن قبلت دعوتى لتناول طعام الغداء فى الغد ثم الذهاب معا الى سباق الخيل فى (أوتى) .

* * *

وتقابلنا مرارا بعد ذلك . وأنست الى الفتاة واطمأنت بعد أن رأت من معاملتى لها أننى لست حقيقة من « زبائن » كارلو الذين يجرون وراء متعة « اللحم الرخيص » .

وعرفت عنها الكثير .. ولكننى لم أعرف — وحتى الساعة — لا أعرف عنها كل شىء .

عرفت منها أنها جاءت الى باريس لتدرس فن النحت .

وعرفت منها أنها تحب شابا انجليزيا اسمه ألفريد — وكانت تدعوه فريدى وتنطق اسمه بحنان عجيب .

وكان الفتى الانجليزى يدرس كما يقول فن التصوير فى باريس وكان متزوجا ... وهكذا كانت تحبه — كما تقول — بلا أمل ! .

وكم من ليلة جلسنا معا فى مسكنى بشارع مارصو ... وتسند هنى رأسها الى مسند المقعد المستطيل وفى يدها قدح (الكوانترو) وتغمض عينيها فى نصف غمضة ، وتحدثنى عن حبها « لفريدى » وكيف يبرد جسمها ويدفأ فى لحظة واحدة اذا ما أمسك يدها أو داعبها فطوق خصرها بذراعه وكيف ... وكيف ...

ثم تدرك فجأة أن هذا الحديث منها لا يليق ... وانها قسوة منها أن تعمل أصابعها فى الجرح الدامى ... فتثب واقفة وتقبل علىّ فى ابتسامة حلوة كلها حنو وتضع يديها على كتفى وتقول :

— صدقنى ... لولا انى أحب فريدى لكنت أنت من أحب ! انك حقيقة ظريف ! وكريم . وأنا لا أستحق منك هذا الظرف والكرم ! .

ثم كانت تبكى ! وكنت أواسيها — وأية امرأة أحق بالمواساة من المرأة التى تحب بلا أمل — ثم ألبسها معطفها وأنزل معها وأوصلها فى « تاكسى » الى مسكنها فى شارع لابواسونيير .

* * *

هذا كل ما عرفته منها ...

ولكنى عرفت من بعض المهاجرين الألمان — وبعضهم من مهاجرى اليهود وبعضهم الآخر من اللاجئين السياسيين الذين هربوا من ألمانيا فرارا من الحكم النازى — عرفت منهم أن هنى من أسرة ألمانية شريفة من بلاد

الراين وأنها وان كانت حقيقة تتظاهر بدراسة النحت الا أن هنــاك سرا أو أسرارا تحيط بحياتها فى باريس . وانه يحدث أحيانا أن تختفى هنى أياما عديدة ثم تظهر فجأة ... وأنها تنفق عن سعة كبيرة مع أن المعروف عن أسرتها أنها رغم عراقة أصلها فقيرة وأن جميـــع أفرادها يكسبون عيشهم من عرق الجبين .

وأفضى الىّ مرة مهاجر يهودى عجوز اسمه « هوفمان » — وكانوا يسمونه الفيلسوف تهكما لأنه كان يشتغل فيما مضى أستاذا فى جامعــة ليبزج — أفضى الىّ برأيه وهو أن هنى تشتغل بالجاسوسية لحساب الجستابو وأنها أوفدت الى باريس خصيصا للتجسس على المهاجرين اليهود والمناهضين للحكم النازى .

فهل كانت هذه هى الحقيقة ؟ ! .

* * *

وذات مساء فى شهر مايو ذهبنا أنا وهنى الى مسرح « البال تباران » وبعد السهرة ، ذهبت معى الى مسكنى لتشرب قدحا من الكوانترو الذى كانت تحبه ... ولكى نمضى معا ساعة فى الحديث كما كانت عادتنا فى معظم الأمسيات . وأذكر أنها كانت ليلة حارة ولم يكن لأحدنا ميل الى النوم .

قلت — ولا أدرى لماذا وأى شيطان أطلق لسانى بهذا السؤال — قلت .

— هل أنت حقيقة جاسوسة كما يقولون ؟ .

ووقفت يدها بالكأس وهى فى طريقها الى شفتيها ... وألقت على نظرة لا أنساها ! .

نظرة امتزج فيها الألم بالدهشة و ... وربما بشيء من الخجل ... وكذلك شيء من الأسف المرير ! .

وقالت بعد سكون دام بضع ثوان :

ــ وهل تظن اننى أجيبك بالصدق لو كنت جاسوسة ؟ .

وضحكت أنا ضحكة لا معنى لها ... الا أن فيها شيئا من الخجل والحرج ! .

وعادت تقول لما رأتنى قد سكت :

ــ اذن لماذا تسألنى ما دمت لن أجيبك بالصدق ... على كل حال اطمئن فلن أتجسس عليك ! .

قلت : اغفرى لى ..

قالت ــ ليس هناك ما أغفره لك ! ولكن دعنى فقط أذكرك اننى لم أسع اليك .. وانك أنت الذى أردت أن تعرفنى ! .

ثم استدركت وقد أحست أن فى كلامها جفوة وقسوة :

ــ ولكننى أؤكد لك أنى لست نادمة على هذه المعرفة . بل أنا أعتز بصداقتك وأتطلع دائما بشوق الى جلساتنا هذه . بل لست أدرى ماذا سأفعل بساعات الوحدة بعد أن تغادر باريس ! .

. وتندت عيناها بالدموع ... ثم أخفت وجهها فى صدرى ! .

وامتدت صداقتى بهنى . صداقة بريئة خالصة ... لم أحاول ولا مرة واحدة أن أقتحم عليها حياتها بل قنعت بالوقوف بالباب ! .

واعطتنى هى ودا خالصا وعطفا وحنانا وقل ما شئت مما هو دون الحب أو الامتزاج ! .

وحل يوم السفر . يوم أغادر باريس ..

وقضينا السهرة معا . هي تغني أغاني بلاد الرين التي أحبها وأنا جالس أنصت مطرق الرأس في الظلال التي كان يلقيها مصباح كبير ...

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ووقفت هني تقول وهي تلبس معطفها الخفيف :

— أظن أن لكل شيء نهاية ... وقد حانت ساعة الوداع ! .

وتقدمت مني وقبلتني في فمي ! .

وكانت القبلة الأولى والأخيرة ! .

وقالت : ستذكرني دائما ؟ ..

قلت : كلا . بل سأحاول أن أنساك ...

قالت بعد لحظة : أصبت . ما الفائدة ! .

... ...

ووقفت أنا في شرفة مسكني اتبع شبحها وهي تسير في الشارع متجهة الى ميدان « الأتوال » الى أن احتواها ظلام الليل ...

وعدت الى باريس في شهر ديسمبر وسألت عنها فقيل لي انها غادرت باريس ...

قلت : وفريدي ؟ .

— لقد عاد الى انجلترا ...

قلت : لعل هذا هو السبب . هل تظن أنها سافرت وراءه الى انجلترا ؟.

قال محدثي — وهو هوفمان « الفيلسوف » :

— لا أدرى . على فكرة ! هل قلت لك اننى سمعت هنا أن ألفريد هذا من رجال قلم المخابرات البريطانية ومن أكثرهم خطرا ؟ ! .

* * *

ومرت الأيام والشهور .. وقامت الحــرب ... وذات يوم جاءنى خطاب من بودابست من صديقتها دايزى المجرية وكانت دايزى تقيم فى باريس لتدرس « فن الحياة » كما كانت تقول ! فلما قامت الحرب عادت الى بلدها بودابست . وفى الخطاب تقول دايزى فى عبارة بسيطة :

« هل تذكر هنى شولنبرج ؟ لاشك انك تذكرها فقد كنت مغرما بها . لقد حوكمت أمام محكمة عسكرية منذ أسبوعين فى مدينة بون وحكم عليها بالاعدام . وأظن أن الجستابو هم السبب » ! .

هكذا ! نعى بسيط وبدون ذكر أى تفاصيل ! .

آه لو علمت دايزى أية عاصفة أثارت ! .

* * *

والآن ... أسائل نفسى هل كانت هنى حقيقة جاسوسة ألمانية وقعت فى غرام جاسوس انجــليزى هو مستر « فريدى » كما كانت تسميه ؟ ثم غلبها حبها فخانت عهــدها مع رجال الجستابو الذين كانوا أرسلوها وحلت بها نقمتهم ! .

تكون قصتها اذن من نوع القصص التى تخرجها هوليوود ! .

هل كانت أو لم تكن ! .

لست أدرى ... ولكنى وضعت يومئذ خطاباتها التى كانت ترسلها الى

فى باريس لتحدد موعدا أو لتعتذر عن موعد ... وصورها التى أهدتنى اياها ... وكذلك خطاب نعيها الذى جاءنى من دايزى ... وضعت هـذه التذكارات فى مظروف ملفوف بشريط أسـود قاتم كاليأس وكتبت عليه :

« عرفتهـا فى ابريل ١٩٣٧ وقطع جـلاد بون رأسها فى أوائل أكتوبر ١٩٣٩ » .

... ...

وها هى ذى زهرة أخرى قد ذبلت وتناثرت أوراقها ! .

والحديقة التى كانت ملأى أيام الشباب بالزهور الضاحكة مثـل الأمل ... قـد أوشكت أن تقفر الا من الأوراق اليابسة الصـفراء كخيبة الأمل ! .

وعندما تتقدم بنا السن نشعر ببرودة فى القلب لأننا ندرك أنه لم تبق فى العمر بقية تتسع لبذر بذور الزهر وانتظار مقدم ربيع جديد . وكل زهرة ذبلت وتناثرت أوراقها لن تعوض ...

وبعد اليوم لن أرى وجه هنى يشرق من بين ظلام شعرها الأسود .. ولن أرى عينيها الخضراوين تبتسمان فى عينى .. وبعد اليوم لن أجلس فى ظلال المصباح الكبير فى مسكنى بشارع مارصو بينما هى تهمس بأغانى الراين بصوت خافت وعميق ...

ثم تدير رأسها وتمسح خلسة دموعها ...

لأنها كانت — مثلى — تحب بلا أمل ! .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦٠٤/١٩٩٩

I.S B.N 977 - 01 - 6153 - 5



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل . للشاب . للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مز[illegible] بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر و[illegible] والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩



١٢٥ قرشاً